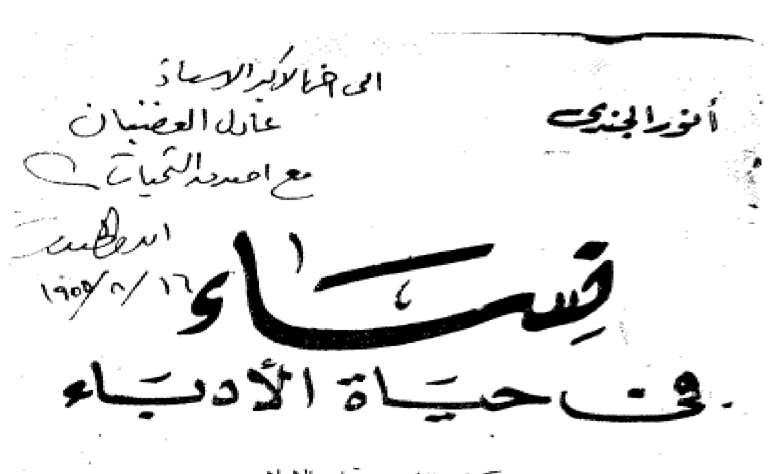

نساء
فى حياة الأدبا
تراجم الأعلام





الكتاب الثاني من تراجم الاعلام

١٩٥٥

دار
الأعلام للطبع والنشر
٨٩ شارع السلطان حسين
بالقاهرة

نساء فى حياة الادباء

تتناول هـذه الرسالة دراسات عن الحياة الوجدانية والنفسية فى أدب الكتاب المعاصرين الذين استأثرت بهم رحمة الله حتى عام ١٩٥٥ ومدى أثر انطباعات المرأة والحب فى فنونهم الأدبية وهم :

نساء فى حياة الأدباء

بسم الله :

تقدم كتابنا الثانى من «رسائل الأعلام» وما كنا نظن أنه سيصدر بعد أن أعوزتنا الوسائل المادية على أثر صدور كتابنا الأول ، الذى لم يلق ما كنا ننتظر له ، ودعونى أكون أول مؤلف يصارح القارىء ويسجل الحقيقة .

هل حقاً ركد سوق الأدب الرفيع فى مصر ولم يعد له قراء . وهل يمكن أن يقع هذا بالنسبة لكاتب عرفه قراءه منذ أكثر من عشر سنوات ، ونشر عشرات الكتب ووزع منها الألوف الكثيرة .

والموضوع جديد . لم تسبق محاولته فى تاريخنا العربى ، وهو عرض حياة أدبائنا المعاصرين عرضا يتناول المعالم النفسية والروحية والوجدانية وأثرها فى أدبهم . وقد عالجته فى اعتدال وإنصاف . لم أحاول أن أجرى مع موجة الحملة العابرة على الأدباء الرواد فى القول بان زمنهم قد انتهى . وأن أدبهم قد شاخ . فأنا مدين لهم . وعلى إيمان بأنهم دعامة لا سبيل إلى تجاهلها . وأنه لا يغض من شأن الأدب الجديد — الذى نكتبه نحن الجيل الصاعد — أن يعترف بالرواد الذين عبدوا السبيل . ووضعوا علامات الطريق . وحطموا الصخور . ولقد حاولت أن أعرف السر فى هذا الركود ، فاستمعت إلى آراء كثيرة ، قال البعض أن شركات التوزيع تحرص على مجلاتها الأسبوعية ولذلك فهى تحطم كل كتاب يحاول أن يأخذ مكاناً . وهى لذلك تعرض مثل كتابنا عرضاً فاتراً لا يتجاوز الأيام . ولا يصل إلى كل مناطق التوزيع فى القاهرة أو البلاد . وهو أمر لو صح لكان خطيراً . ولم يكن له من علاج . فالمؤلف مضطر لأن يتصل بالقراء عن طريق الناشرين والموزعين ، فاذا كان المؤلف هو الطابع والناشر وكان قد استقطع تكاليف كتابه من رزقه المحدود ، عرفنا إلى أى حد يكون الأمر وتكون التضحية .

وخيل إلى أن أتوقف وأن أتراجع مرة ثالثة . كما تراجعت فى فبراير سنة ١٩٥٣ بعد إصدار « عطارد » وكما تراجعت فى مارس سنة ١٩٥٤ بعد أن أصدرت «أعلام الإسلام». ولكنى رأيت بعد تفكير طويل إن المسألة قد أصبحت بالنسبة إلى مسألة حياة أو موت. وإنه لا سبيل أمامى إلا أن أصدر مؤلفاتى هذه التى أتممت منها ما يزيد عن عشرة مجلدات . و التى استهلكت كل وقتى وأعصابى منـــذ يناير سنة ١٩٥٠ حتى الآن وبقيت محبوسة فى ملفاتها على مكتبى تنتظر النور . وتتطلع إلى الحياة .

وقال لى بعض الأدباء : لو كنت هاجمت هؤلاء الأدباء أو تناولت حياتهم الجنسية فى صراحة لأثار كتابك ضجة وتقدماً . وتردد إسمك وإسم كتابك فى الصحف وتخاطفه الناس . وقال آخر : إذا كنت ستنصف هؤلاء القدامى فمتى ستأخذ مكانك أنت. ولكن كيف السبيل إلى أن أقنع نفسى بهذه البهلوانية وهذا الأسلوب من التهريج الذى لا يتفق مع طبيعتى التى لا تعرف الوصول من السبيل الرخيص أو على حساب الظلم والتحامل. وقد أردت أن أضع بين يدى الناس صورة صادقة لحياة هؤلاء الأدباء ، بريئة من الرياء ، مدحاً كان أو هجاء .

وبعد فلقد طالما نصحنى الناصحون أن أترك الأدب . وكانت أول كلمة دوت فى أذنى من أديب أضاع الأدب حياته هو الدكتور زكى مبارك رحمه الله عام ١٩٣٤ . ولكن كتب الله ألا أنتصح ولن انتصح ، وسأظل أستنزف كل ما يصل إلى يدى من مال فى سبيل إذاعة آثارى . ولن أطوى ردائى أو أسمح لنفسى أن تنهزم فى هذا الميدان مهما لقيت فيه من عنت .

فاذا توقفت هـذه السلسلة فسيكون ذلك بالرغم منا . وإثمه على السوق التى تقبل التفاهات وتلتهمها . وتغض الطرف عن الأدب الرفيع وتتجاهله فى إصرار : ولكن إذا قدر لنا أن نختفى فلن نلبث أن نعود من جديد ؟

٢٤ يوليه سنة ١٩٥٥ — أنور الجندى

المنفلوطى



لاشك أن كبار «الرواد» الذين أقاموا صرح الأدب العربى المعاصر ، قد فتحوا عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب . .

هذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن ، حتى كان الثالوث ، طه حسين وأحمد حسن الزيات ، ومحمود زناتى ، يترقب المؤيد كل خميس ليقرأ له فى اعجاب .

« اشرق[1] أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد أشراق البشاشة ، وسطع فى أنديه الأدب سطوع العبير ، ورن فى اسماع الأدباء رنين النغم ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يرو فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة فاقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد الوحيد العذب » ويبدو المنفلوطى فى رسائله وقصصه فى صورة قاتمة ، حزينة ، فهو قادر على أن يرسم صورة الألم الممض ، فيحول الأجواء كلها إلى عواصف ودموع والآم وبكاء ونواح

ولا يزال أدب المنفلوطى — بعد ثلاثين عاما — قويا حيا يبعث فى النفس أثاره دون أن تقضى عليه الألوان الجـــديدة التى جاءت بعده

---

(۱) أحمد حسن الزيات — وحى الرسالة ج ۱ .

وإن لم يكن من أدب القوة إلا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من القوة والجرأة والحماسة .

بدأ حياته الأدبية ١٩٠٨ ناثرا وكاتبا ، وإن كان قد سبق فنظم الشعر وكانت له من بعد قصائد شهر فيها بالاحتلال وسجن من أجلها . وكان هذا الاتجاه الشعرى الباكر مصدر تلك الثروة اللفظية ، واللون الوجدانى فى نثره .

والمنفلوطى من المتشائمين ، الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء انتاجهم ، فهو ليس من الكتاب العقليين ، أو أصحاب المذاهب الفكرية ، بقدر ما هو من كتاب المعانى التى تتصل بالحب والحرمان والألم والبؤس . .

وان كان قد أخفق فى دراسته الأزهرية . فقد فتح له ذلك - شأن من كانوا على شاكلته - بابا للقراءة متصلة واسعة فى الأدب العربى القديم وروائع الشعر والنثر مما أتاح له أن يكون مجدداً فى الأدب ، وأن يبدأ فجر النهضة الأدبية بهذا اللون الذى لم يسبقه به أحد من قبل .

ومهما يكن من رأى بعض كتابنا فى المنفلوطى[1] فان أثر اسلوب المنفلوطى يبدو واضحا فى كتابات الرافعى وطه حسين والزيات وعبد العزيز البشرى .

وقد استطاع المنفلوطى أن يظفر من ناقديه بأنه « أحد[2] أولئك الأدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى .. »

غير أن المنفلوطى وأن جدد فى أسلوب التعبير . الا أنه ظل محافظاً فى ميدان المعانى فقد تمسك بالقديم وحمل على قاسم أمين وكان يعلن أنه لا يثق بالأطباء وأنهم لا يغنون عن القدر ولا يرفعون نازله القضاء ..

فأذا أردنا أن نصل إلى جوهر نفسه أمكننا أن نعتمد فى ذلك على مصدرين كانا وثيقا الاتصال به . أما أحدهما فهو الزيات « . . كان صحيح الفهم فى بطء . سليم الفكر فى جهد . دقيق فى سكوت ، هيوب اللسان فى

---

(١) العقاد فى مراجعات فى الادب والحياة .
(٢) نفس المصدر .

تحفظ ، ولذلك كان يتق المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الاسرة ونظام التعليم الصامت فى الازهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس »

أما الجارم فيصفه قريبا من هذا حيث يقول « . . كثير الحفظ والروايه سريع الخاطر ، دقيق الحس ، نبيل العاطفة ، جذابا إلى اقصى حدود الجاذبية جم الأدب ، كان الحياء أبرز صفاته فلم تكن تتفتح نفسه وتبدو على سجيتها الا بعد معاشرة ومخالطة . وهو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ويجيد تصوير معناه »

واتصل المنفلوطى بالشيخ على يوسف .. وكتب بالمؤيد ، فصول النظرات التى اشتهر بها .. وأذاعت اسمه فى كل مكان .. وابتدع بها هذا الفن الجديد فى الكتابة العربية الجذلة السهلة الرائعة ..

واتصل بسعد زغلول، ودافع عن مذهبه السياسى ، وكان صديقا لحافظ ابراهيم وامام العبد وأحمد نسيم واحمد فؤاد .. يساهرهم فى قهوة الاندية

ولم يسلم المنفلوطى من متاعب الخصومة السياسية . فقد هاجم فى فصول النظرات « عبد العزيز جاويش » فى مقال « طبقات الكتاب » .. اذ كان جاويش خصما للمؤيد ولسعد ..

ولعل مما يذكر هنا ان طه حسين كان قد افتتح حياته الادبية بالهجوم على المنفلوطى ينقد « النظرات ثم عاد فصحح رأيه فيه عام ١٩٤٩(١)

ويرى طه حسين فى هذا أنه تحول من أسلوب فى النقد إلى أسلوب آخر فقدكان حريصاً فى مطلع الشباب على النقد الذى يتصل بالألفاظ والعبارات .. ثم اتجه إلى النقد الموضعى بعد أن ارتفعت به السن .

كما اتصل المنفلوطى بالشيخ محمد عبده ، وقال فيه شعراً . وترجمت له بعض القصص الأوربيه ، فصاغها فى أسلوبه العربى البليغ فجاءت آية من آيات

---

(١) الهلال .

الإبداع . ومن ذا الذي ينسى «ماجدولين» .. «والعبرات»وذلك طابع الحزن الذي يغشى صحائفها . والحق أن آثار المنفلوطي تكشف عن نفسية تغلب عليها « العاطفة الحزينة » .. وهو يصف نفسه عندما بلغ الأربعين « . . الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة . والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام أو أعثر في طريق عثرة تهوى بي إلى المصرع الأخير هويا . . .

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحاً للآمال والأحلام وكنا نطير في أجوائك البديعة الطليقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء ، لانشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولانسأم .

. . وما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكني أرى أمامي عالماً مجهولا ، لا أعلم مايكون حظي منه ، واترك ورائي أطفالا صغاراً (1) .

. . ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى « . . أما من ورائي فانه يتولى السائمة في مرتعها ، والقطا في أفحوصتها ، والعصفور في عشه ، والفرخ في وكره . .

وداعا أيها الشباب فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر .. »

هذه المعاني تعطى صورة الرجل المحب للحياة ، المشفق من الموت ، الذي يستقبل الغيب على نحورة من الخوف والتوجس .

وتبدو صورة المنفلوطي وهو يحب الحياه ويقبل عليها ويحرص على المتاع بها في هذا الخطاب الذي ارسله إلى « الموسيقار » حسن أنور بعد عودته من رأس البر . « . . . وصلت إلى مصر وقد شعرت عند وصولي إليها بشيء من

(1) النظرات — (الاربعون)

الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عند القاء القبض عليه واعادته اليه . وسأظل زمنا طويلا متمثلا فى ذهنى جمال تلك الأيام التى تمتعت فيها بنعمة الحرية والطلاقة — لا يقيدنى مقيد ، ولا يسيطر على مسيطر من النظم والتقاليد اجلس فى كل أرض ، وافىء إلى كل ظل ، وأسير تحت كل سماء . وأتحدث بكل ما يحول فى خاطرى من جد وهزل ، وصواب وهزيان . كأنى أعيش فى عزلة منقطعة لا تقع على فيها عين ، ولا يطرق سمعى صوت ، كما لا أنسى ماحييت جمال ذلك المصيف البديع ومناظر كثبانه ورماله وسمائه ، وبره وبحره ومواقع غزلانه ومرابع جآذرة ، ومنظر لسانه العذب الرطيب وهو يمتد ساعه الأصيل فى غمار الماء ، ينهل منه النهلات الباردات .

. . فليت ذلك دام لى ، ولكنه لايدوم ، لأن السعادة فى هذه الحياة بوارق لامعة تخفق فى ظلمه الليل ثم تختفى (1) . . .

هذه صورة نفسية للمنفلوطى فيها صراحه ووضوح بعيدة عن التكلف الذى تفرضه كتابات الصحف ، وهى أيضا تعطى صورة لأسلوب المنفلوطى حين يكتب لاصدقائه ، ويرسل نفسه على طبيعتها يصور المعانى التى تزدحم بها نفسه ، هذه النفس المحبة للحياة ، الحريصة على المتاع واللذة . . . الخائفة المتوجسة فى نفس الوقت من نهاية السعادة حين يرى أنها ليست الا بوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى . . .

وبعد فالمنفلوطى يأخذ مكانه هنا لانه علم على رأس مرحلة من مراحل الانشاء الأدبى وعلى رأس « طريقه » فى الأدب وأسلوب فى التعبير ومدرسة فى البؤس والحزن والحرمان والارجح أن يكون مرجع هذه الوجدانية التى نراها فى « ماجدولين » و « الشاعر » إلى أشواق نفسية فى أعماق الكاتب نفسه وجدت مكان الافضاء عنها فى تلك الصور الشعرية التى رسمها بقلمه بعد أن ترجمت له .

(1) الهلال — مارس ١٩٣١

ليس من شك أن المنفلوطي شاعر النفس ، وأنه أحب . وهذا هو سر قوته الوجدانية ، ويبدو أن المنفلوطي لم يجد في مقدوره الكشف عن صور حبه في صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة . وجملة القول فيه أنه أديب الآلام والحزن والحرمان ، يصورها بأسلوبه البيغ فتجد لها في كل نفس صدى ، وفي كل قلب أثر

خرج المنفلوطي عن الأسلوب التقليدي ، فادخل إلى الأدب المعاني والصور بعد إن كان الزخرف هو كل شيء . فهو مرحلة بين المويلحي من ناحية وبين الزيات والرافعي من ناحية أخرى . وهو وان كان قد عاصر المدرسة المهجرية الا أنه تحرر منها وظل محتفظا بطابعه الخاص .

وهو يحرص أحيانا على أن يكون ضخما فخما في أسـلوبه وقاسيا مؤثراً في معانية ، يبعث الألم والحزن . حتى لتضيق به أحيانا ، ولا تحتمل قسوته حين يصل بأبطاله إلى أبعد حدود الآلام المتخيلة . فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والعرى والحرمان ، وهو إلى ذلك كاتب وطني واجه الانجليز بقلمه في عنف . ومقالة في الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته في هجاء الخديو معروفه .

أحمـــد أمين



يمثل « أحمد أمين » مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الأدب المعاصر فى مصر، فهو الأزهرى الذى تخرج فى الأزهر واتجه إلى دار العلوم والقضاء الشرعى .. وانتقل من القضاء إلى التدريس فى الجامعة ، ثم انتقل إلى حياة التأليف والكتابة ، وتعلم اللغة الإنجليزية بعد أن ارتفعت سنه ، وترجم منها . .

واستبدل العمامة بالطربوش ، وسافر إلى أوربا وإلى الشرق ، وظل مع ذلك « الإنسان » المحافظ فى آرائه وأفكاره وحياته ، والمنطوى على نفسه ..

لم يتصل أحمد أمين بالحياة . . ولم يجر فى تياراتها المختلفة ، بل ظل يعيش فى حيوات الكتاب والمفكرين وأعمالهم . ومن ثم كان لأسلوبه ذلك الطابع الجاف . . الذى ليس له سمت خاص يتميز به ، وخلا أدبه من العاطفة والوجدان . وكما خلا من تلك الروح الفنية الجذابة ، التى تهز النفس وتأخذ باللب والتى نجدها عند أزهريين آخرين كطه حسين والزيات وزكى مبارك ..

. . ويرجع هذا إلى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين ، وهو إلى العلماء أقرب منه إلى الأدباء ، ويرجع هذا الاتجاه إلى الدراسات والدوافع الأولى . .

فقد نشأ أحمد أمين فى بيئة محافظة ، دينية ، كان لها أثرها فى نشأته وكانت التربية الأزهرية بعيدة الأثر فى أهدافه واتجاهاته . فلما أراد أن يندمج فى الحياة الجديدة ، اندمج فيها على طبيعته وبكل مقوماته لم يدع منها شيئاً ، ولم يستطع أن يتحول أو ينتقل على الطريقة التى تحول إليها طه أو مبارك أو على طريقة الزيات ومصطفى عبد الرازق ، فهؤلاء يختلفون عنه لانهم سافروا إلى أوربا وأمضوا مراحل دراسة طويلة هناك . .

وإنما ظل هو ، كما هو « النفس المنطوية » التى تزهد فى الناس ، وتجنح إلى العزلة ، وتعكف على المطالعة والبحث والدراسة .

* * *

صحيح أن هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج إنتاجاً عقلياً غاية فى القوة والوفرة ، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا . . فاذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة ، غلبت عليه الأفكار المثالية وجعلته غريباً عن المجتمع إلى حد ما .

ويغنينا أحمد أمين فى تصوير اعتزاله للمجتمع حيث يقول « .. لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذى نشعر به خجل قبيح ، وضعف فى الحرية الشخصية ، وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد فى متعتها ، وعدم تفتح النفس لمسراتها . . وكان أبى يكثر من ذكر « الموت » وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لوناً من الحزن والقناعة فى طلب المجد ، ولكن بجانب الجد فى الحياة والصبر على المكاره والترفع عن صغائر أمور الدنيا لأن كبارها قليلة القيمة .. »

* * *

ليس فى أدب أحمد أمين شبح للمرأة على الإطلاق ، وعلى أى صورة من الصور ، حتى ليخيل للباحث أنها لم تؤثر فيه مطلقاً . وقد ظل يتحاماها ، حتى التقى بالإنجليزية التى علمته اللغة ..

« . . . وعشقت[1] مرة مدرسة لى إنجليزية ، كنت أتبادل معها الدروس العربية والإنجليزية ، وأحببتها حباً يائساً لأنها كانت متزوجة ، سعيدة بزواجها ، ولكن جمالها وجمال عينيها ، جعلنى أتمنى يوم درسها وأعده عيداً . . ولولا أن الدين والعلم كبلانى لكنت أمام المحبين .

رأتنى شاباً فى السابعة والعشرين ، أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشى فى جلال ووقار ، والتزمت فى حياتى ، فلا موسيقى ولا تمثيل ولا شيئاً حتى من اللهو البرىء ، وأصرف حياتى بين دروس أحضرها ، ودروس ألقيها ، ولغة أتعلمها ، ورأتنى مكتئب النفس ، منقبض الصدر ، ينطوى قلبى على حزن عميق ، ورأتنى لا أبتهج بالحياة ، ولا ينفتح صدرى للسرور ، فوضعت لى مبدأ هو « تذكر أنك شاب » ، تقوله فى كل مناسبة وتذكرنى به من حين إلى حين .

والثانى أنها رأت لى عيناً مغمضة ، لا تلتفت إلى جمال زهره ولا جمال انسجام وترتيب ، فوضعت لى المبدأ الآخر « يجب أن تكون لك عين فنية . . » فكنت إذا دخلت عليها فى حجرتها ، وبدأت آخذ الدرس وأتكلم فى موضوعه صاحت فى « ألم تر فى الحجرة أزهاراً جميلة تلفت نظرك ، وتثير إعجابك فتتحدث عنها » .

ويقول أحمد أمين أنه لازمها أربع سنوات واستفاد كثيراً من عقلها وفنها ثم يعقب على ذلك « . . ولكننى لا أظن أنى استفدت كثيراً من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائماً أنى شاب » .

* * *

ثم تزوج أحمد أمين ، وظل على طابعه المتفرد ، ذلك الطابع الذى يتمثل فى الوحدة وفى الحياة بين الأسفار . وقد أنكر أهله منه هذا ، ولكنهم

---

(1) كتاب « حياتى » .

قنعوا به أخيراً .. « وقد صدمت زوجتى بعد قليل إذ رأتنى هادئاً غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت فى بيت مرح .. فظنت أنى لا أقدرها ، وإنى نادم على الزواج بها . وأكدت لها أن هذا طبعى كسبته من بيئتى فلم تصدق ولم تطمئن .. إلا بعد طول العشرة ، ووثوقها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها .

وهى تحتمل الصباح وحدها لإعداد ما نأكل . . وتنظيف ما ينظف .. ولكن كيف تحتمل المساء أيضاً وحدها ، وأنا فى غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والأيام هى الأيام الأولى لزواجنا » .

ولعل هذه الأضواء على الحياة الإجتماعية لأحمد أمين تعطينا مفاتيح أدبه .. وترسم لنا صورة « مالك الحزين » التى رسمها له الأستاذ طاهر الطناحى حين وصفه بأنه يضع على عينيه منظاراً أسود .

يقول الأستاذ أحمد أمين فى تصوير نفسيته « رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان ، سواء كان جمالا طبيعياً ، أو جمالا صناعياً ، أو جمالا فنياً ، ولى حاسة قوية فى سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة » .

« أحب الخير للناس وأفرح لنجاحهم ورقيهم ، ولكنى مع هذا الحب غيور فبجانب هذا الفرح ، أغضب إذا أنا حرمت مثل ما نالوا » .

* * *

ولكن لماذا آثر أحمد أمين خطة الانطواء فلم يتصل بالأحزاب اتصالا مباشراً ، ولم يغامر فى السياسة مغامرة كبرى . . ، وظل بعيداً عنهما ، فلم يبرز بروز كتابها . . .

هل رأى نفسه لا يصلح لها ، يقول : « أعرف أنى جبان بقدر شجاعتى فى قول الحق . أخاف التعذيب وأخاف السجن ، وأخاف الشنق . وربما كان هذا هو السبب فى أنى أفضل العلم على السياسة . وربما كان هذا هو

السبب فى أنى تخلفت عن زملائى السياسيين حيث تقدموا إلى أن كانوا رؤساء وزارات . . . »

* * *

سافر أحمد أمين إلى العراق وسوريا والآستانة والحجاز ، ثم جال فى أوربا جولة غير قصيرة . . . ، ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق ، ومزيد العلم والخبرة ، فقد عاشها على نفس الصورة التى يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحث ، لا استمتاع بها ولا تطلع إلى خفاياها . .

وليس فى آثار أحمد أمين أى فصول عن هذه الرحلات إلا ما كتبه عنها فى كتاب « حياتى » .

* * *

يصف أحمد أمين طبيعته فى وضوح ، هذه الطبيعة الحزينة المنطوية حين يقول : « ما أحوجنى إلى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوى بها جوى . ضحكة حية صافية ، عالية .. ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء .. ولا هى ضحكة صفراء ، لا تعبر عما فى القلب ، وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى . وأفحص منها الأرض برجلى » .

هذه الطبيعة هى التى رسمها اتجاه أحمد أمين إلى العلم وإلى الدراسات العقلية التى تصل إلى ذروة قوتها فى « فجر الإسلام » وهو « الكتاب الذى أتعبه لأنه الأول من نوعه » .

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكراً ، كتب فى السفور سنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفور فى قوة ، ودافع عن رأى قاسم أمين ، .. وقال عن الجامعة أنها أزهر بقبعة .. لقد كره الأزهر منذ رأى الطلاب وهم يعرضون الخبز للبيع ، وعاد إلى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هذا أول ما شاهده فى الأزهر ولكن بالرغم من نفور أحمد أمين من الأزهر وكراهيته له واتجاهه إلى الثقافة

الأوربية ، هل استطاع حقاً أن ينتزع نفسه من الأزهر .. كلا ، « إن كل ما فيه من خير إنما مرده إلى الأزهر » كما قال عنه الإمام المراغي .

لقد أكسبته طبيعته هذا المزيج من البيئة والأزهر : طابع البطء ، فهو « يحب أن يتحرك على مهل ويتذوق على مهل ويستطعم ما يأكل . وهو يحب النظام حباً شديداً .. »

إنه لم يصنع نفسه ، على حد قوله ، « ... لقد عمل على تكويني إلى حد كبير ما ورثت عن آبائي .. والحياة الاقتصادية ، والدين ، واللغة ، وأدبنا الشعبي ونوع التربية .. أن تفسى من صنع الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة » .

الرافعى



« وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً فى الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ثم لا يدفعنى إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحانى . دون فطرة الشر والحيوانية . ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة أكبر منها ، غير أنه هو منها .. »

إذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح ، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية فى ذروتها وقوتها . فان ذروة أدب الرافعى ومفتاح شخصيته ، وعقدة حياته الفكرية والأدبية هى شىء واحد هو « الحب » .

فكرة واحدة ، أو حب واحد قام فى حياته فلونها كلها وأحالها إلى دنيا كاملة ممتدة فى أدبه وكتاباته وفنونه ..

ماذا كان الرافعى قبل هذا الحب ، وماذا كان أدبه ، . . هل كان يتأهب لهذا الحدث ، ويستعد لهذا الدور الذى لعبه القدر فى حياة كاتب رصين العبارة ، بليغ الأداء ؟

أكاد أقطع حين أضع يدى على قصة الحب التى عاشها الرافعى ، إن خصوماته الأدبية ، وكتاباته الفنية ومؤلفاته . . ومذاهبه فى الإعجاب والخصومة . . وهذه الحلقات المترابطة الممتدة فى كتبه ، حديث القمر ، رسائل الأحزان ، أوراق الورد ، وحى القلم ، . . إنما هى حلقات من قصة واحدة . .

وأصدق ما يقال عن « الرافعى » أن نفسه ممثلة فى أدبه ، وأن ملامحه الروحية واضحة فى آثاره وأن حياته مرسومة فى فنه ، ببساطتها وتعقيدها ، ومرونتها والتوائها ، فهو يعيش فى أفكاره وأحلامه ورؤياه ، ويبدو من وراء معانيه قائماً ، يعرف حين يغضب وحين يرضى . .

فاذا بدا هناك بعض الضباب ، فانما هو نتيجة للعوامل النفسية التى تتصل برجل أصم ، لم يتصل بالناس إلا قليلا ، ولم يصل لمكنون أعماقهم إلا فى حدود محدودة ، ولم يلتمس لنومهم إلا عن طريق قصاصات من الورق تكتب له . .

وليس الدفاع عن الدين واللغة فى ذاته إلا جزء من كيان هذه الشخصية وجانب من التعبير عن النفس فيها .

وآثار الرافعى كلها تكشف عن نفسية مضيئة مشرقة ، تفهم الحب فهما دقيقاً ، وتصوره تصويراً قل أن يتاح إلا لمحب عرك الحب ، ولمس أعماقه ، ومس شغاف قلبه .

* * *

ليس للرافعى تاريخ إلا قصة حبه . . فقد بدأ حياته شاعراً ثم تحول إلى النثر . وكاد أن يقصره على « فلسفة الحب والجمال » يصور به عواطفه ويرسم مشاعره ، بل أننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول أنه فى سبيل الحب ، أقام خصوماته الأدبية ، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها . وكان عنيداً فى صراعه وفى خصومته .

ويبدو هذا الصراع قوياً حين يتصل بشخصين ، هما طه حسين والعقاد

ثم يتبلور الرافعي في صورته النهائية القوية ، حين يتصل بالرسالة ويكتب فصوله « وحي القلم » .

والرافعي أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه ، وهو ما لم يتوفر لكثيرين ، ويتميز هذا الأسلوب بالعمق والغموض ، . .

وقد تأتى له هذا الأسلوب البليغ العميق الغامض ، من بيئة العلم والفقه والدين ، التي نشأ فيها حين تفتحت حياته على كتب الأدب القديم ، إذ أتاحت له آفته أن يتكف ، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه . . فانقادت له حتى استطاع أن يصاول أقطابها وإذا به يرى مدافعاً عن القديم ، وهو الذي تعلم في مدارس الفرير ، على حين وقف بعض الأزهريين في صفوف المجددين .

* * *

كان الرافعي يحس بالنقص الطبيعي في حاسة سمعه فكان يعوض ذلك بالتبريز في ميدان الحياة بالحب وفي ميدان الأدب بالصراع .

يرسم الرافعي لنفسه في رسائل الأحزان صورة واضحة . . « أما هذا الصديق فأعرفه أسلوباً في الكبر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن على نفسه . كأنما فتحت أفواه عروقه حنيناً ، وملأتها الوراثة من دم ملك كان في أجداده . مستصعب شديد المراس اجتمع في تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب . جف القلم منها على نيف وأربعين جرءاً كلماتها في حوادثها . وأن السطر منها ليرعد في صحيفة من الغيظ وأن الكلمة لتبكي وأن الحزن ليئن أنيناً يسمع .

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين . وتذهب غير مخيرين . إن طوعا وإن كرهاً . فد يدك بالرضا ، والمتابعة للأقدار أو انترعها إن شئت فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف في مذاهب القدر . إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه فقد

تكون مقبلا والمنفعة من وراءك . أو مدبراً والمنفعة أمامك .. »

ويرسم صورة حبه » .. بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم أوكما يقول الفلاسفة فى تعليل ذكاء الأذكياء إنهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه ، لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا ، غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه قد هدم بعضها بعضاً ..

كانت حياة صديق ليلا طويلا انبسط على فن من الظلام كأنه مورق بالسحب والغمائم السود لا ينقشع بعضها عن بعض . حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ، ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها .

هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، كانا فى الحب جزءين من تاريخ نشر منه ما نشر وطوى ما طوى . هدمت الأقدار هذا الصديق فجاءت هى تبنيه وتشد منه وترم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناء جديدا » .

فاذا تعرض لفلسفة الحب ، رسم صورة جبارة ، لا أدرى كيف افلت من معارضيه دون سجال وصراع .

« . . وذو الفن لايفيد من الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله ، فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف ، ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ، ومن ثم ترى مجاهدة اللذة فى الحب هى أسمى لذاته . ويعرف بها فى نفسه ضربا آلهيامن السكينة تولية القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ويصرفها ويبدع فيها عمله الفنى العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل إذا كان زوجا وعشق ، أو كان عشيقا وتزوج بفهمن يهواها ، استطاع أن يبدع لنفسه فنا جميلا من مسرات

المفكر لايجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة . مثل هذا المفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة ، كما يحتاج إلى الصديقة فهو فى قوته يجمع بين لزامه هذه وقدسية تلك ، لأن احداهما توازن الأخرى وتعدلها فى الطبع . وتخفف من طغيانها على الغريزة وتمسك القلب أن يتبدد فى جو الخيال . . .

• • •

والرافعى فلسفة فى الحياة ، تحمل طابع التشاؤم ، كأنما ينظر صاحبها إلى الحياة بمنظار أسود . .

« ما آتينا إلى هذه الدنيا إلا لنمثل كل منا فصلا من معانى الشقاء فى تلك الثياب التى هى ملك لصاحب المسرح لانخلعها ونلبسها . . بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر ، والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها . . وضعها ذلك القلم الأعلى . .

والمشكلة الإنسانية الكبرى أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية وعقلها المبكر ، والقوم والقدر والموت كالشىء الواحد . . »

• • •

هذه الفلسفة منبعثة من أحساس بالحرمان من الحب . ومن ألم صادع مصدره ذلك الشقاء . . . الذى ظل الرافعى يحمله فى أعماقه طوال حياته . . منذ . . . ذلك اليوم الذى ذهب إلى صاحبته ، فرآها قد جلست إلى « شاعر » تحدثه ويحدثها . .

فلما طال انتظاره ، مضى على وجهه وأرسل كتاب القطيعة .

وأرسلت صاحبته تعتذر له . ولكن الرافعى مضى فى طريقه . . وأصر ، ثم أحس بعد أنه كان مسرفا . . . ومن يومها ، عاش الرافعى فى غمرة من الشوق والألم والبغض لا تنجلى عنه .

«وما[1] عرف إلا من بعد أنه يحبها حباً لايطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ، وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجرأ مما كان ، وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر . وظل وظلت . . وبينهما البعد البعيد ، على هوى وحنين . حتى جاء الموت لحل العقدة التي استعصت على الأحياء . . . »

ويصف هو هذا الحب .. «كان حبي إياها حريقا في الحب فثل لعينك جسما تناول جلده مس من لهب فتسلع هذا الجلد هنا وهناك من سلخ النار . وظهر فيه من آثار الحرق لهب يابس أحمر . كأنه عروق من الجمر انتشرت في هذا الجسم .

والحب — إن كان حبا — لم يكن إلا عذابا فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق . ليس حالة منه في عذابه إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها .

ولما رأيتها أول مرة ولمسني الحب لمسة ساحر ، جلست إليها أتأملها واحتسي من جمالها ذلك الضياء المسكر الذي تعربد له الروح عربدة كلها وقار ظاهر ، فرأيتني يومئذ في حالة كغشية الوحي فوقها الآدمية ساكنة وتحتها تيار الملائكة يصب ويجرى . . . »

ويصف الأستاذ سعيد العريان حب الرافعي في أكثر من موضع في كتابه حياة الرافعي «أن الحب عند الناس هو حيلة لإيجاد النوع ولكنه عند الرافعي حيلة النفس إلى السمو والأشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول. هو نافذة تطل منها البشرية إلى غايتها العليا وأهدافها البعيدة . . . »

---

(1) سعيد العريان في حياة الرافعي

« كان يحبها حبا عنيفا جارفا لايقف فى سبيله شىء ولكنه حب ليس من حب الناس . حب فوق الشهوات . وفوق الغايات الدنيا . لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح وقد وجدها ولكن فى نفسه لافى لسانه وقلبه .

وأحس وشعر وتصورت نفسه الآفاق البعيدة ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذى يصف نفسه ويبين عن خواطره .

لقد أحبها جهد الحب ومداده . حبا أضل نفسه وشرد فكره وسلبه القرار ولكنه حب عجيب ليس فيه حنين الدم ولكنه حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر وخلوه الروح إلى الروح . .

و . . كان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة . . وجد فى كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضىء بها فكره . وكان آخر حبه الألم . وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة . . »

* * *

وظل الرافعى يحب صاحبته « أنه ليس معى إلا ظلالها . . ولكنها ظلال حية تروح وتجىء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضى تعز فى هذه الظلال الحية كأن لايفنى »

وكان يحس بلذع الحب بعد مضى ثلاثة عشر عاما طوالا . . فيقول « إنها حماقتى وكبريائى . . ليتنى لم أفعل . . ليت »

وأنشأ الرافعى رسائل الأحزان وفى وقدة الحب وغمرته ، ثم أنشأ أوراق الورد بعد أن تحول الحب إلى حزن مقيم فى أعماق النفس ، وكان حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبته ، ولعل من آثار هذا الحب هذه المعركة الضخمة التى اندلعت بينه وبين العقاد ، وامتدت آثارها إلى المدرسة الحديثة . .

« ولقد[1] وضعك حدثك فى طريق موضع البدر ، يرى ويحب ولا تناله ولا تعلق بنوره ظله نفس ، ولكن كبرياءك نصبه الجبل الشامخ كأنه ما خلق ذلك المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه » .

« .. وبعث[2] صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف فملأ هى نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ، وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير ه مصيف ، مشغله فى الليل والنهار

ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم .. وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها .. كانت زوجته .. ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء .

وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعينى العاشق . وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتحل العقدة ..

« ثم جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة » .

* * *

ولكن الرافعى بعد أن فقد صاحبته تفتح للحب ، فعاش له ، كان يحاول أن يملأ فراغ نفسه ، ولكنه فيما يبدو لم يستطع .. فقد أراد أكثر من مرة .. أن يعيش فى حب جديد ، ولكنه كان أبداً مشدوداً إلى حبه الأول

.. عاش الرافعى حياته للحب ، كانت « مى » هى المنار القوى السامق الذى يبدو له من كل مكان ، وهو بين عواصف البحر ولججه .. « ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى فكل ما فى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها .. وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه[3] .

* * *

(1) الرافعى (2) سعيد العريان (3) الرافعى

ولعل فشل الرافعى فى حبه .. هو الذى دفعه رأيه إلى أن يسوء فى المرأة » .. والمرأة من هؤلاء لايخشى أمرها فى الناس ولا يتصل عيشها إلا إذا كثرت ثيابها . فهى تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل . فينبعث منها الغضب .. وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث منها الرضى وهى فى أشد الغيظ .

« فهى تبرز حين تخرج من بيتها لا إلى الطريق ولكن إلى نظرات الرجال وتظهر حين تظهر بصورة لايتلوين نفسها عما يجوز وعما لايجوز ولكن يتلوين مرآتها عما يعجب ومالا يعجب . » .

وقد أثير سجال فى « الرسالة » بين تلميذين من تلاميذ الرافعى حول حب الرافعى قال فيه الأستاذ حسنين مخلوف أن الرافعى أراد أن يحدث فى اللغة العربية لونا من الفن الممزوج بالفلسفة الاجتماعية التى تقوم على إيجاد المرأة على النحو المستفيض فى الأدب العربى فطلب الحب لذلك . . أما الأستاذ كامل محمود حبيب فيرى أن الرافعى شعر بجفاف قلبه لشدة تدينه فطلب الحب ليندى به قلبه ويرق أسلوبه . ويرى الأستاذ سعيد العريان أن الرافعى بكبريائه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يخلق للحب . ولكنه أحب . فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام وصراعا دائما . ومقطع القول فى كل هذا ما أوردناه فى أول هذا الفصل عن فلسفة الرافعى فى الحب وهى إيمانه فى الجمع بين الزوجة والحبيبة .

* * *

والرافعى إلى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين . فهو إذا تحدث عن الأديب أو المفكر الذى يصر على العزوبة قال أنه يكون رجلا قد طغت فيه الحياة طغيانها العصبى الشديد الجتاح ، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الخيالى العنيف المتمرد . ولهذا لا يصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له . فإنه إنما يريد المرأة المثلة ، كأنها عينية من الفن الحى ، تطل عليه من

ثمراتها . وقد أبى الشيطان لعنه الله إلا أن تكون المرأة المثلة فى الفن امرأة محرمة .. ومتى كان الشيطان فى الأمر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حده . ومن هنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة . وهذا سر تعزبهم وانصرافهم عن الزواج أو انصراف الأزواج عنهم وهولاء ركة على الفن ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة . ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقرى فيهم هو من ناحية أخرى الحيوان العظيم ... »

* * *

فاذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعى على ضوء هذه الصورة وغيرها من صور حياته وجدناه مثلا لعزة النفس وكبريائها .. وقد عاش طوال حياته فى حدود دخله الضيق . ولم يفد من الإنتاج الأدبى فائدة تذكر . فقد كان أدبه من ذلك النوع الذى لا يؤدى إلى الثراء ..

بل لعل إنشاء هذا الأدب الجديد الذى كتبه فى الرسالة ، إنما جاء نتيجة للاضطرار حين أراد أن ينفق على ابنه فى بعثته فى الخارج .

لم يسافر الرافعى إلى خارج مصر ، وإنما عرف بحبه للانتقال بين المدن المصرية . وكان يجد فى الإنتقال لذة يغذى به عاطفة ويمد أدبه . .

وهو يؤمن برسالته الأدبية « .. القبلة التى إتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا مايبعثها حيه ويزيد من حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة . ولذا لا أمس من الآداب إلا نواحيها العليا . ثم أنه يخيل إلى دائماً : إنى رسول لغوى للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه .

وقد قرأ الرافعى فى فجر شبابه جمال الدين ومحمد عبده وصروف وغوستاف لوبون وتأثر بهم . ويرى أن كتابه أوراق الورد هو خير كتبه ، لأنى لم أتعب فى شيء مثل تعبي فيه وربما بيضت الرسالة الواحدة فى أربع ساعات لأنه

الغرض هو أعطاء العربية هذا الكنز الذى ليس فيها .. »

وقول الرافعى أنه إنما يريد ابتداع لون جديد من فلسفة الحب والجمال فى الأدب العربى إنما هو تبرير لنشر هذه الرسائل فى الوقت الذى كانت فيه الكتابة عن الحب معدودة من المحرمات ، أو مما لا يليق بكتاب الدين والأدب الرفيع .

وقد استطاع الرافعى تحت هذه الظلال أن ينفذ إلى غرضه وإن يترك ثروة ضخمة من هذا اللون الذى تحرز من الكتابة فيه من كانوا فى نظر القراء أقل محافظة وأكثر جرأة ..

وليس من شك أن الرافعى كان مخلصاً لأمانته وفنه ، فقد كان يسكب روحه على الورق ، ويصدر عن نفس مؤمنة ، عميقة الإيمان والإقناع ، ولعل النقص الطبيعى فى حاسة سمعه ، كان يدفعه إلى أن يداور المعنى ليسلس له أو ليجعله أشد وقعاً فى إذن القارى وفى نفسه .

ولقد عرف « الرافعى » بالقسوة البالغة فى ميدان النقد حينما يتصل ذلك بأدبه ، عرف ذلك فى موقفه من العقاد وطه حسين وزكى مبارك وقد داعبه «الزيات» فى هذا حين كتب رده العنيف على « عفيفه السيد » إذ قال إنه حين أراد أن يمسك قلم أوراق الورد ليكتب رده ، أخطأ فامسك قلم « على السفود » .

وإذا كان المؤرخون يأخذون على الرافعى شيئاً فانما يأخذون عليه ترحضه فى كتابه « على السفود » .

ولكن يبدو أن « طاقة » الرافعى الناقدة كانت ضخمة جداً لوانه أستطاع أن يجد المجال لها ، وفى خطاب منه إلى الأستاذ محمود أبو ريه[1] « كل ما أتمناه من زمن بعيد هو أن أتفرغ لمقالات فى النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحية الضعيفة وتبنى عليه أدباً جديداً » .

---

(١) رسائل الرافعى

وكان رأيه في الصحف سيئا .. «(1) لو عرفت يا أبا رية الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفاً ولكنها حوانيت تجارة .

والرافعي سيء الرأي في المنفلوطي» .. فإن حياة هذا الرجل كانت كلها موت له فصار موته كأنه حياة تبعث على الرغبة في قراءة ما كتب» ولكن الرافعي على شماسه وعصبيته كان حريصاً وكان يعرف ما يطلقون عليه اسم الكياسة واللباقة . يبدو هذا في خطاباته إلى الأستاذ محمود أبو رية :

«.. وأعلم إني لو نظمت رثاء الشهيد فريد بك كما يجب أن ينظم وفي المعاني التي تليق به لرأيت في الصحف خبر نقلي إلى قنا أو ما دونها فترك الشر ما كان أجمل بي .. »

وقوله : «دار الكل .. فإن أتقاء الضرر كجلب المنفعة فاجعلها قاعدتك »

* * *

ونهاية القول في «الرافعي » إنه كان على رأس مدرسة جديدة لا شك في جدتها وقوتها ، في إنشاء هذا اللون الوجداني ، وجديدة في قوتها وصراحتها وجرأتها في النقد .

(1) نفس المصدر

جبران



عاش جبران خليل جبران حياة يلفها غموض وسحر وبريق ولهب وحب .. هذا النحيل الذى كان يرسم ويكتب . ويطوف ببلاد أوربا وأمريكا . ويكتب بالإنجليزية والعربية . ويعيش فى برج عاجى فى قلب بلاد المهجر . ينشىء فناً جديداً من فنون الكتابة فى الأدب العربى يتحرر به من قيود اللغة والأدب . ويضرب فى سبيل جرىء .

هذه الحياة القصيرة ، التى عاشها جبران ، ثمانى وأربعين عاماً . كان الحب والألم عنصراها الخالدان . ومنهما استمد الأدب عنده حياته وحرارته .

وأحب أول ما أحب فى هذه الدنيا « أمه » . أحبها بعنف وحرارة غير معهودة ..

« أمى . إن أعذب ما تتطق به الألسنة هو لفظ الأم ، وأجمل مناداة فى الوجود هى « يا أمى » كلمة صغيرة كبيرة . مملوءة بالأمل والحب والانعطاف . الأم هى كل شىء فى هذه الحياة . هى التعزية فى الحزن والرجاء فى اليأس . والقوة فى الضعف .. هى ينبوع الحنان والرأفة . فالذى يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه ، وعيناً تحرسه . كل شىء فى الطبيعة يرمز

ويتكلم عن الأمومة ، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها بحرارتها . وتحضنها بنورها . ولا تغادرها في المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر . وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها .

وعاش جبران للحب . وعرفه بكل ملذاته وآلامه .. « والحب كوثر تسكبه عرائس الفجر في الأرواح القوية فتجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل . وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

ولقي في حياته موكباً من النساء . في باريس . وبيروت . وبروكسل . ولندن . وبوسطن ..

ولكن المرأة الأولى ظلت تقيم في أعماقه لا تبرحه .. « سلمى كرامه » المرأة التي أحبها في سن الثامنة عشرة .. المرأة التي علمته عبادة الجمال . وأرته خفايا الحب .. وختمت قصتها بالمأساة . حين أرغمت على الزواج برجل آخر. وماتت وهي تضع أول ثمرة من أحشائها .

« .. « سلمى كرامه » .. المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها . وعلمتني عبادة الجمال . وأرغمت على الزواج برجل آخر .. » .

* * *

كان في قلب جبران وعقله شيء واحد .. هو الفن : على صورة من الرسم أو ورقة من الكتابة . كلاهما سيان عنده . ولما قصد إلى بيروت ليدخل مدرسة الحكمة ويتعلم العربية .. وأحس بالفشل . ذهب إلى باريس ليدرس الفن . .

شاب في العشرين من عمره . يرتاد متاحف اللوفر . . ويشاهد آثار ميكلانجو ورمبرانت وروبنس . . وفي العام التالي (١٩٠٤) عاد إلى بوسطن حيث وجد أمه وأخوته في أشد حالات الألم . ومات بطرس وماتت الأم بالسل .. وبقيت أخته مريانا تنفق عليه من إبرتها .

وتقاذفته عواصف الحياة . واندفع يعب من تيارها . « إنى أمشى دواماً على هذه الشواطئ بين الرمل والزبد . يجىء المد فيمحوا آثار قدمى وتهب الريح فتثير الزبد هباء ولكن البحر والشاطئ باقيان إلى الأبد . . »

وعرف الحب فى صورة أخرى غير صورة سلمى كرامه . وقال عنه « إنه كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل . وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

عرف « مارى هاكس » . . ووجد فيها ذلك الملاك الذى كان يفتش عنه منذ سنوات . وجد الصورة الحية فى أعماقه . أعجبه فيها ذوقها وفهمها للفن . كانت تحبه متجردة للحب . لم تكن تتمنى إلا أن تأخذ بيده إلى المجد . كانت تؤمن أن لكل فنان ملهمة . فأرادت أن تكون ملهمته . يقول ميخائيل نعيمه « ولم يخطر له ولا لمارى هاكسل أن الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه المعظم خطى حياتهما ، ليتابع بحياكة النسيج الذى بدأ به منذ الأزل على منواله السرمدى » .

وعرف ميشلين . كانت فى عينه ملاكا فى صورة امرأة . فى العشرين من عمرها . فيها طهارة الطفل وابتسامة الزهر . « جميلة تمشى كان فى رجليها أجنحة وفى قلبها سلطانها . لا عقلها . بلا ادعاء ولا كبرياء » وربط الحب بينه وبينها بالروح والجسد . ورمته بالأنانية لأنه رفض الزواج بها واتهمته بأنه لايعرف إلا نفسه .

وظل حبها يصارع حب مارى هاكسل فى نفسه ، وكان صراعاً طويلا جباراً وصفه بقوله : كان حبى للاثنين خالصاً وفياً . أحببت مارى هاكسل لتجردها من الرذائل وكرم نفسها . وذوقها السليم فقد أحبتنى ولم تطلب منى شيئاً . وأحببتها ولم أطلب منها شيئاً وأمدتنى بالمال فى وقت حاجتى لها . ولم تكن لها أمنية إلا أن ترانى أرتقى مدارج الشهرة والمجد والكمال الفنى فى الرسم ،

أما المرأة الثانية فقد أحبتها لجمال روحها وجسدها . أحبتها لوفائها وأنوثتها وطاعتها . كانت ماري أكبر مني وميشلين أصغر مني سنا .

* * *

وعرف أميلي .. كانت زميلته في المدرسة . كانت آية في الجمال والروعة لقد فتنه منها أنها قالت له عند ما رأت لوحته عن البحر : الفن هو أن تأتي بضمير البحر لا أن ترسم أمواجاً مزبدة أو مياهاً زرقاء هادئة . وكانت مثال البساطة والصراحة تغلب العقل ولا تعرف الشهوات .

وأحب « مي » دون أن يراها أو يعرفها . كان يحس أن روحها أخت روحه ، سكب كل منا روحه في رسائله إلى الآخر .

وأرسلته ماري هاسكل إلى باريس على نفقتها . وعاش طالباً في البوزار في الحي اللاتيني .. يفكر في المرأتين اللتين تركهما وراءه . . ويقول يا ليت روح ماري كانت في جسد ميشلين . وجاءته ميشلين . . من وراء المحيط . ولكنها سرعان ماتختلف معه وتهرب عند ما ترى أنه لايريدها إلاخطية له . .

وأمضى ثلاث سنوات زار خلالها روما وبروكسل ولندن ومتاحفها وآثارها الفنية وعاد إلى أمريكا ليبدأ حياة جديدة غير واضحة المعالم ، وكان خلال إقامته في باريس قد أنشأ كتابيه عرائس المروج والأرواح المتمردة . .

كان يطمع من أن يفتح الفن والأدب أمامه آفاق الحياة فيريح مريانا من الإبرة . وكان ما يزال يحب ماري . وكانت هي تقدر مواهبه وتفهم أشواقه ومطامحه . ففكر في أن يتزوجها ليضع لحياته قاعدة تدفعه إلى التفرغ لعمله .. وقد وصف ميخائيل نعيمة حبها بقوله « كانت تحبه حتى لتحس بخمر جديدة تدب في أفكارها عند ما تجلس إليه ، فلما عرض عليها رغبته في أن تتزوجه قالت له : وهل أنت نظيف . . » وانقلب من حمل وديع إلى أسد جريح . كان يظن أن حبها له أرفع من محبة الذات » . . وتقاطعا وبدا أن

حبهما قد تحطم . . ولكنها مع ذلك ظلت تبعث إليه بالحوالة ذات الخمسة وسبعين دولاراً .

وفى ضوء هذه الحياة المليئة بالحب والعواصف والآلام والمتاعب أنشأ جبران أدبه . كانت قراءاته فى الأدب الغربى ورحلاته المتعددة . وحياته المضطربة ، هى التى صنعت أدبه المتمرد . المليء بالحرية والصراع والثورة . .

لقد أحب نيتشه وفتنه دعوته إلى الإنسان الأعلى . وكادت معرفته له أن تطغى على معرفته لجميع الأدباء والشعراء . حتى لقد قال أن معرفته لنيتشه قد جعلته يخجل من إثارة الأخرى التى قدمها قبل أن يعرفه .

وفى هذا الإتجاه يقول « أن الدموع إنما تليق بمآقى النساء . . أما أنت فدعك منها » واندفع يحرر نفسه وأدبه من الدين ، حتى رمى بالكفر ، لقد أنكر الأديان واتجه إلى الإنسانية العليا . .

« لقد حررت عواطفى من عبودية الشرائع لأحيا بناموس المحبة، وحولت وجهى نحو الشمس لئلا أرى جسدى بين الجماجم والأشواك . أن شرائع الزواج كما يطبقها الناس هى من صنع الرجل . أما الحب الذى يريدون أن يجعلوا الزوج تاجاً له واكليلا . فهو من صنع الله . فالكاهن الذى يبارك لن يطرد الحب من قلب يقيم فيه . ولن يدخله إلى قلب خلى » .

وهومنذ شبابه ثائر متمرد ، لايحب الإعتدال« أحب من الناس المتطرفين. أحب القادرين على الهبوط إلى لجج الحياة والصعود إلى أعاليها . أحب الذين يميلون بكليتهم إلى وحدانية الأمور فلا يقفون مترددين بين نقيضين . أحب النفوس الطامحة بمرام كائن قوى ثابت . وأهوى الإرواح البسيطة .

« أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين . المستسلمين إلى عواطفهم المنصرفين إلى مبدأ خاص . المتحولين عن اختلاط الأفكار إلى فكرة أولية مجرده . ترتفع بهم إلى ما وراء الغيوم وتنحدر بهم إلى أعماق البحار » .

وهو فى الحب يبغى التطرف . « من يعتدل فى حبه لا يشرب من كاسات

الحب خلداً مبرداً ولامرآ حاميا . ومن يعتدل فى دنياه يبق حيث ولدته أمه . فلا يتراجع إلى الوراء ولا يخطو إلى الأمام . أحب الذين احرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة اشعلت قلوبهم » .

وكان جبران بهذه النفس الثائرة العاصفة يحب العواصف والأعاصير والأمطار المنهمرة والأشجار التى تمايل وتضطرب أغصانها .

وكان من جرأة رأيه أن حرمته الكنيسة من حقوقه وحكمت عليــــه بالنفى لأنه كان إنسانياً فى الدين فلا يراه فى حدود الطقوس والمزامير .

وهو غال فى رأيه . يميل إلى الغرابة ، ويكره السهل واليسير والرأى المطروق . وطبيعته لا ترضى بالطريق المسلوك ...

« أريد أن أنصب تمثالا للجمال لا للحرية . لأن الحرية هى التى يشعلون الحرب تحت قدميها . أما الجمال فهو الذى يمد الناس أيديهم إليه رمزاً للاخاء والحب » .

* * *

ومضى جبران يشق طريقه . ويكتب رسائله . ومن أبرزها فى هذه الفترة كتاب «النبى» الذى صوره فيها على هيئة «زرادشت» التى خلقها نيتشه . وإن كانت شخصية النبى هى خلاصة أفكار جبران ذاته .

يقول مخائيل نعيمة أنه بعد سنة ١٩٢٠ أشرف على فجر حياة جديدةوأن العواصف التى أثارها نيتشه كانت قد بدأت تهدأ . وإن جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنه بجمال الحياة وحكمتها قد عاد يبحث عن تلك النفس ويتبشها من لحدها ليجدد معها موائيقه .

وأخذت الشهرة وعلامات المجد بملأ حياة الفنان الكاتب . فتزايد زوار صومعته وتكاثر المعجبون به . وأكثرهم من الجنس الآخر . وبدأت علامات

الثراء تغمره وانطوى منه الأدب الجرىء ويدأ أدب المجاملة حيث يصفه نعيمة بقوله « ولما أحس بالمجد والعظمة على ألسنة الناس لم يعد فى استطاعته أن يكوى تلك الألسنه بنار نقمته وسخريته بل صار يبذل كل جهده ليكون عند حسن ظن الناس . وكلما ازداد توفيقاً فى هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهره التى يعرضها على الناس وروحه الباطنه التى كان يسترها عنهم » .

وكان قبلا « يصفع الناس بيد ويصالحهم بالأخرى . ويثور عليهم عند ما تثوب إليه روحه المتألمة من كل شفاعة وقسوة وظلم . ويسالمهم عند ما تثور عليه نفسه الطامحة إلى المجد والعظمة وهكذا انقسمت نفسه على نفسه » .

ومضى جبران يعمل وينتج . كانت روحه القوية تنازع الداء وتصارع الألم . . .

وظل الحب عنوان حياته وقوامها .. كان يحب ويدعو إلى الحب ويتسع حبه للعالم كله وقد شرب كأس الحب حتى الثمالة .

يقول « عندما تتوثق عرى الصداقة بين رجل وامرأة فيتذوقان معاً كأس الحياة مترعة . تتكون منهما ذاتية واحدة . وأصبحا كمن حمل وولد ولداً ، له أمل فى البقاء والتناسل أو أنهما نظما قصيدة أو أنشودة لا تموت . هناك فى عالم الخالق شىء لن يموت لأننا صديقان » .

والحق أن المرأة كانت هى أروع فصل فى حياة جبران . هى روح تلك الحياة . ومنها استمد الضياء والفن والإلهام .

تقول بربارة ينج صديقة جبران ومؤرخته : لم يشهد العالم كله أغرب كجبران . شرب الكأس حتى الثمالة مره وشهده . وليس ثمة عاشق يعتد به فى الوجود يتحدث عن كأس الحب الذى شربه ..

كان هناك صنفان من المرأة فى نظره . المرأة التى كانت تحبه وتخلص له وتتفانى فى ولائها ، لأن هذا الحب كان وليد الإقرار بالفضل والاعتراف بالجميل .. كان حباً خالصاً ، لا يتطلب منه مجهوداً أو بذلا . وهناك المرأة التى كان يصف حبها بقوله « تعتقدين أننى أحسن مما أنا حقيقة . تحبيننى شاعراً ورساماً . وتصبو نفسك إلى شىء منى كشاعر ورسام . أما أنا بالذات فلست تعرفيننى ولا تحبيننى » .

* * *

وعاش جبران حياة البوهمية المطلقة . يحس أحياناً كأنه هبط إلى هذه الدنيا من أحد الكواكب . وأنه إنسان يعيش على هذه الأرض بغير أمس . وبغير ماض . وكأنما كل ما حوله من مظاهر البشر وأشكالهم وأصواتهم غريبة عنه .

يقول « عند ما قذفتنى أحشاء الغيب فكرة هيولية اجتمعت الكائنات حولى لتخرجنى هيكلا ينبض بالحياة ، قبلتنى النجوم بأشعتها فاستيقظت ، ونفثت أزاهير الفصول الحارية طيباً فى فمى فتنفست . وأنشدت الحياة والأعاصير أغنيتها فى أذنى فتحركت ، وسرت هينمة النسيم فى مفاصلى فاختلجت . وظلت موسيقى الكائنات تهدهدنى بين أنغامها المنتشة إلى أن تكونت » .

هذا هو أدب جبران يصوغ المعانى صوراً هائمة ، حالمة ، وقد عرف بهذا اللون الابتداعى الخالص .

وفى كتاب « النبى » يصور المحبة على هذا النسق الموسيقى الحالم .

« جوهر الحياة واحد وهو المحبة . وهذا الجوهر يدفع ذاته لكل الناس على السواء . ولكن بعضه لا يسمعه ولا يبصره . أما الذى طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية . ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع

«و يبصر من الحياة إلا جوهرها الصافى . وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها . بل يحبها بكليتها .

الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية ، وهى قطرة الماء مثلها فى الاقيانوس . وفى ذرة الرمل مثلها فى الجبل» .

* * *

ولما ارتوى جبران من الجمال والحب والمجد . . بدأ يحس بالانطواء ، وأخذ يكره الحضارة والمدنية الصاخبة المجاجة ، ويحلم بالجبال ، ولقد اتسعت دنياه ولكنه أحس بفقر آحد نابا من الفقر القديم . ولوجده أقسى ملامس من تلك التى طالما ساورت أيامه ولياليه . فقد أقفر قلبه من الحب فى حين أن النساء كن يحمن حوله ، حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما إليها من بخور الإعجاب ، قد تخدر القلب حينا ولكنها لا تطفىء عطشه ولا تسكن جوعه ولا تؤنس وحشته . . فكيف به إذا كان قلب شاعر وفنان ، هكذا يصفه ميخائيل نعيمه . .

لقد جمع جبران فى أدبه بين المتناقضات . ولكنه كان صادقاً . إن أدبه مرآة نفسه ، فى تطوره من الشباب العاصف إلى الشيخوخة المتمردة . . ومع ذلك فقد كان يرى أنه لم يصل القمة فيقول ، إن كرمتى لم تثمر غير الحصرم ، وشبكتى ما برحت مغمورة بالماء » .

وعاش حياته . ثمان وأربعين عاما . فى صراع مستميت مع نفسه ليكون مثالا أشبه بالتمثال المصنوع من المرمر . وترك تراثاً أدبياً خالداً . هو لون جديد من الأدب العربى الجرىء الحر : الجرىء على قيود الأسلوب واللغة والخيال . الحر فى أفكاره وأدائه . ولقد صدق جبران حين قال ، جئت لأقول كلمة . وسأقولها . وإذا رجعنى الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد ،

فالغد لا يترك سراً مكنوناً فى كتاب اللانهاية » .

وعاد جبران إلى الأرض التى أحبها . ولكنه عاد جدثاً كريماً حيث ثوى قريباً من المكان الذى أحب . . . كان ذلك سنة ١٩٣١ . كنت طالباً فى المدرسة الإبتدائية . وإنى لأذكر ذلك كأنه وقع الآن . وكان الأهرام يصل إلى بلدنا فى الساعة الواحدة ظهراً . وكنا فى إحدى حصص بعد الظهر حيث لمحت اسم جبران فى الصفحة الأولى ينعى إلى القراء . وساءلت نفسى من يكون جبران خليل جبران . إن اسمه الموسيقى قد ملأ نفسى فرغبت إلى أن أقرأ له . وصادفنى أول ما صادفنى له كتاب الأجنحة المتكسرة فرأيت عنده فى ذلك الوقت الباكر شيئاً جديداً لم يكن معروفاً فى أدبنا العربى . هذه الطلاقة وهذه الألفاظ المتموجة كأنها لحن موسيقى أكثر مما هى كلام مكتوب . . .

وبدأت أعرف الأدب المهجرى وأقدر مكان جبران فى أدبنا . وأخذت أدرس هذا الطابع الجديد الذى تميز به أدباء المهجر ولكنى كنت دائماً أرى جبران قمة من القمم العالية . كنت أحس أن وراء معانيه روحاً ثائرة متمردة منفعلة . بها مرارة واضحة . كأنما يريد جبران للشرق أن يلحق بالحضارة فى دفعة واحدة ، ولا يقدر التطور الطبيعى . فهو ثائر . أغلب ثورته على الطقوس والتقاليد الموروثة باسم الدين والتى يسيطر بها الكهان على الناس . . وهذه فى عقله الباطن ترجع إلى قصته مع سلمى كرامه . يوم وقفت هذه التقاليد حائلة دون زواجه بها بعد أن أحبها . وكأنما كان هذا الموقف مقطعاً فاصلا فى حياته وتفكيره وعقيدته . فهو قد اندفع فى الحياة يكافح ولكنه لم يأنس ما بقى من حياته إلى امرأة على كثرة ما عرف من النساء . وكأنما وقف ذلك الحب القديم حائلا بينه وبين ممارسة هذا الفن الجميل . .

ولعل اندفاعه فى سبيل المجـــد قد حال دون أن يتم حياته فى هذه

الناحية كأى فنان ، وجملة القول أن جبران فى مجموعه علماً على الصراع بين الشرق والغرب . وبين لبنان وأمريكا . وبين ظلال التقاليد وحرية الحضارة فى ميادين الأدب والمجتمع والحياة فهو أحد ضحايا التطور . وأحد روادنا الأوائل. وقد اتسم أدبه بهذه الحيرة ، اتسام حياته بها . فقد كان أدبه صورة نفسه وحياته . لقد حاول أن يعيش فناناً فى قلب أمريكا ، مع ذلك فقد ظل ذلك الإنسان الشرقى الكامن فى أعماقه يراوده ويصارعه ويضايقه . . ويبدو أنه كاد يستسلم إليه فى آخر أيامه عند ما خفت حدة الصراع ودخل فى دور الشيخوخة .

«مى ...»



كانت قصة «مى» فريدة فى موضوعها ، لم يتح لها أن تتكرر فى تاريخ الأدب العربى المعاصر ، فهى مرتبطة أشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على أثر صيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال أن «مى» فكرة أكثر منها أنثى ، وعلامة من علامات الطريق أكثر من أنها كاتبة عاشت فى القاهرة. وكان لها صالون تستقبل فيه أعلام الأدب أمسيات الثلاثاء .

برزت فى الوقت الذى كانت المرأة فيه ماتزال محجبة ، وكان إلمامها لأرباب الفكر وأهل الأدب يكاد يكون معدوما . فكأنت «دره» مفرده ، يلتق فى مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى واسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن .

ولعلنا لانستطيع أن نخلى آثار هؤلاء الأدباء من طيف مى ، وروحها اللطيفة . فقد أجمع هؤلاء جميعا فيما كتبوا عن «مى» أنها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة ، بارعة الحديث ، سيدة صالون بحق ، قد أعادت فى قاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولادة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والأدب والشعر والفن ، وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها

تدير الحوار فى براعه ، وتنتقل المحدثين من فن إلى فن .

* * *

قرأت آيات الأدبين الفرنسى والعربى إذ فتحت عينيها على مكتبة والدها الأديب الصحفى . واكسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنيا ، فانشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية ، وأسلوبا يدل عليها وتعرف به ، فكان أدبها صورة نفسها فى أحزانها وأفراحها وآمالها وآلامها ...

وكان أدبها إلى ذلك صورة الأدب النسوى العربى فى طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية ، وقد كانتا شاعرتان أكثر منهما ناثرتان ، ولذلك عدت « مى » الرائدة الأولى للأدب النسوى الخالص .

وقد أتاحت لها هذه الحرية فى الكتابة والحياة والانطلاق بيئتها اللبنانية الأولى التى تفتحت عليها نفسها وعواطفها ، فهى قد ولدت فى الناصرة ، وقضت أيام طفولتها فى كسروان وعين طورى . ثم جاءت إلى مصر فجمعت بين روح الجبل وروح النيل ، وبين أدب الانجيل وأدب القرآن ، وبين بيان الضاد وبيان الفرنسية . فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذى أتاح لها هذا النثر الرشيق الأنيق ، وذلك اللسان الذلق البليغ . وهما قلما يجتمعان لأحد إلا فى النادر فقد عرف أن الكتاب البارعين لا يكونوا محدثين إلا فى القليل ...

* * *

ونحن إذ عدنا إلى « مى » وتصورناها تعيش فى القاهرة ، وقد أخذت تذيع أدبها فى الهلال والمقتطف والأهرام ، وتفتح صالونها للأدباء والأقطاب رأيناها أشبه بروح جميل ، تنشر الضياء والشذى . . من حولها إلى كل مكان يمكن أن يصل إليـه ، وإلى أبعد مكان يمكن أن يصل إليـه ، فقد كان جبران خليل جبران يعيش فى المهجر ، ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون

من الحب الروحى الغامض لمى ، وكان الرافعى وهو يعيش فى ملطا يحس أنه مرتبط الأواصر بها ، بل أن الأمر ليبلغ بالرافعى حداً ، أن تكون هذه الرابطة أعظم خطراً من « علاقة صداقة مجردة » . فقد لونت « مى » أدب الرافعى كله ، وأثرت فى أيام حياته كلها منذ عرفها إلى أن قضى . .

والحق أن « مى » قد أوحت إلى الكثير من الأدباء المعاصرين ، وأمدت أدبهم بالهامها وتركت روحها وراء كلماتهم .

* * *

ولكن « مى » التى كانت تلتق بالأدباء ، وتفتح صالونها لأقطاب مصر ومفكريها ، كانت فى صميم حياتها الخاصة منطوية على نفسها ، كانت حريصة على أن تعيش طويلا فى « برجها » الخـــاص لاتبرحه . كانت محافظة كثيرة الحيطة والكتمان والاحتراس ، تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك فى مرح الرجال .

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقى البعيد المدى ، الذاهب فى جذور النفس ، والذى لم تتخلص منه حين تخلصت من مظاهره . ولكنها إلى هـذا كانت مصرة على أن يظل طاجوها الخاص . وكانت لاتقبـل النصح أو التوجيه فى تغيير أسـلوب الحياة . وفى رحلتها إلى أوربا وعودتها ، كانت تعـكف على نفسها وتنزوى فى ركن من أركان المركب . لاتشارك فى رقص ولا طرب ولا مرح .

أنها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المتاوية ، الذى استقبلت الحياة على صورة لم تسبقها إليها أنثى فى زمنها ، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيـه على شجرة ، أو فنن . .

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا . هناك نفوس حيرى كانت تتصل

بها ، وتكاشفها بالعاطفة ، ونفوس أخرى طوت أحضالها على شوق أو إعجاب . وتلقت مى رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعى وعشرات آخرين ووجدت فى هذه الرسائل آمالا ومعانى ، تتصل بالنفس الشاعرة ، وكتبت « مى » إلى هؤلاء ، ولكن إلى أى حد مضت هذه الخطوط . .

من أحبت « مى » صادقة من هؤلاء ، وكيف رسمت فى نفسها صورة المستقبل ، هذا هو الجانب الغامض فى حياة مى . وهنا سر حياتها وموتها ومصدر أزمتها التى أنهت حياتها بمأساه .

كانت « مى » روحا لطيفا ، وكانت تحب حبا وجدانيا خالصاً . ولكنها لم تلبث أن بدأت تصارع عوامل مختلفة متعددة فى حياتها فقد ارتفع بها السن وبدأ ان الحياة لابد أن تأخذ طابعاً أكثر استقراراً . . . وفيما تمضى مى فى طريقها إذا بها تلق عدة صدمات فى وقت واحد فقد مات أبوها ، ثم ماتت أمها بعد فترة قصيرة . . فزلزلت الحياة أمامها زلزالها . ثم لم يلبث أن نعى لها جبران وكانت تضمر له وداً خالصا وتصطفيه .

. . .

استقبلت « مى » الحياة على غير الصورة التى تستقبلها بها الفتيات ، كان للصالون والشخصيات التى التقت بها أثرها فى نفسها ، وفى تكوين « عقدة » ما

لقد كان شبلى شميل ويعقوب صروف وهما عالمان كبيران ، انصرفا إلى العلم وحده ، كان كل منهما يضمرا لها عاطفة حفية ، وهما فى هذا السن الكبير ، حتى أن شبلى شميل العالم الطبيعى الذى لم يعرف غير مقاييس الاجرام والجاذبية ، تتفجر نفسه بقول الشعر فى حب مى .

أما يعقوب صروف فقد كانت « مى » تبادله عاطفته وهى تكتب إليه .. « اكتب اليك والشمس تنزل درجات الأفق ، وقد سبحت غيوم

المساء كما فى بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت فى جميع أطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة وتلك الحرارة . ما أجمل الشجيرات التى أنبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم ، تبسم بأزهارها الكليلة على جانبى شارعنا .. هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، أم اكتفيت بالسير فى شارع عماد الدين !

ربما كنت الآن سائراً فى الخلاء تنظر إلى هذا الغروب الساحر وتفكر فى أما أنا فلم أخرج من البيت فى هذه الأيام التى كثرت فيها المعاكسات .. لو كنت اليوم فى لبنان لقضيت فريضة الحج إلى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتى الكبرى هذا الصيف أن أزور البقعة الصغيرة الكبيرة التى بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتى إلى تأدية الواجب نحو كبار رجاله .

. . .

وثمة عاطفة أخرى بينها وبين أمين الريحانى . الذى يصف أدبها بعد أن قرأ كتابيها « الصحائف » و « أشعة وظلال » بقوله . . . « ادهشنى فيك وأنت فى حذرك ، وفى قدس أقداسك شرقية لا تزالين — أدهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لاتعرف يسراها ماتصنع يمناها . فهى لاتسمح لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها فى مفاوز الشوق ومروج الحب بغير نظره تذكرها بما فى الحياة الفاسقتها ، وبما فى الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة وأدغال مدركة منعشة وأنت يا مى مدركة السرفى الاثنين . متمة بالجانبين . . . »

وهناك صورة أخرى من صور العاطفة الجياشة بين انطون الجميل ومى .. ولعلها واحدة من العوامل البعيدة الأثر فى أزمتها ومأساتها .

لقد التقى الجميل ومى وعلى صداقة روحية امتدت من عام ١٩١٥ إلى ١٩٢٨ حوالى ثلاثة وثلاثين عاما . كان كل منهما فى الشباب الغض ، وتطورت هذه

الصداقة إلى عاطفة وحب عذرى . يقول لها فى بعض كتبه : يلذ لى يا مى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب .. لأن كل وصف قليل إذا ما قيس لصفاتك ، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك ، .. بلغت إلى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ، ذات الفضل العميم على فى مثل هذه الساعة . فأقف طويلا عن الكتابة ضائعا فى بحار الذكريات بل أن الكلمات تعصانى فأبحث عنها فلا أجدها ...»

* * *

وهناك صورة أشد قوة ولوعة وحيويه ، هى صورة مصطفى صادق الرافعى .

لقد أحب (مى) من أعماقه ومن كل قلبه . ثم حكم الزمن بالقطيعة . هذه القطيعة التى لونت أدب الرافعى بعد ذلك ورسمت له طابعه وإتجاهه .. فقد عاش الرافعى على هذا الحب ، وظل مشتعلا فى قلبه ، متوقداً بين جوانحه إلى آخر أيام حياته . وكان يطمع فى أن تصل الأيام بينه وبينها مرة أخرى : ولكن هل كانت مى تبادله هذا الحب ؟

إن هذه الكلمات التى كتبتها « مى » للرافعى تعطى صورة واضحة لحب قوى « سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر . وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ، وسأدعوك أخى وصديق . أنا التى لا أخ لى ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

« سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك . حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأتسمع إلى جميع الأصوات علىأعثر فيها على لهجة صوتك . وأشرح جميع الأفكار وأمتدح المصائب من

الآراء ايتماظم تقديرى لآرائك وأفكارك . وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك فى حضورك . سأتحول عنك إلى نفسى لا فكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لافكر فيك .. »

وكتب إليها الرافعى « .. أى بليغ يراك ولا يعرف منك فناً جديداً من حسن معانية ومبانية ويعرفك ولا يرى فيك أبدع البديع فيا يعانية من أفتانه . لله الحمد الذى جعلنا نتلق الماء ولم يحشمنا أن نصعد من أجله السماء » .

* * *

هذه صور التقت فيها « مى » مع بعض من عرفت من الكتاب والأدباء على عاطفة غير واضحة ، أو ذات ظلال ، ولكن كيف كانت نهاية هذه الصور فى نفس « مى » .. لقد فكر الرافعى وفكر أنطون الجميل فى الزواج فاذا الذى صرفهما . لقد مات جبران أن قبل يراها وقد واعدها على لقاء لم يمهله الموت ليتمه ..

الحق أن هذه اللوحات تعطى صورة النفس الحزينه المتمرده ، التى تدفعها عاطفة قوية فياضه ، ثم تردها طبيعة جبلت على الحرص وإقامة الحواجز والحق أيضاً أن واحداً من هؤلاء الذين أستغرقت عاطفتهم حب « مى » فيما يبدو لم يفاتحها فى صراحة فى الزواج .

هذا فضلا عن انها ما أن فقدت أباها وأمها .. وبدأت خطوب الزمن تناشها ، حتى أنصرف عنها هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها أمسية الثلاثاء . لم تجد أحداً منهم يدفع عنها ، غائله بعض الأهل الذين كان لهم فيها مطمع قريب أو بعيد .. إنها كانت تنظر إلى هذه الصداقات فى حرص وحذر ، وكانت تريد أن تجد منها واحدة تدعو صاحبها أباها وأمها ، تطلعه على ضعفها واحتياجها الى المعونة ، وتجد فيه الرجل الذى تتمثل فيه قوة الأبطال ومصارعة الصناديد .. لم تجد ذلك إلا فى الرافعى ، الذى غلب عليه كبريائه حين رأها تؤثر شاعراً معروفا بالحديث دونه فأنتفض انتفاضه المجروح ومضى .. وحاولت مى أن تعتذر له فلم يستمع ثم عاش حياته نادما ، وقد سبقته إلى الموت !

أما « مأساة » مى فجمل[1] الرأى فيها أن بعض أقاربها حاربوها بعد موت والديها ، وكان لهم فيها مطمع ، لم يجدوا دونه منالا ، فادعوا أنها قد أصيبت فى عقلها ونقلوها إلى مستشفى العصفورية فى لبنان ... حيث أصيبت فى جو هذا المستشفى بمتاعب نفسية ، أضيفت إلى حالتها الخاصة فى هذه الفترة ، حين خلت حياتها من عطف الوالدين ، وحدث هذا فى نفس الوقت الذى أخذت تتخطى فيه الشباب إلى بواكير الشيخوخة وليس من حولها واحه لها ظلال ..

يقول سلامه موسى أن مى تزعزعت عقب وفاة والدتها ، « وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا أنه متمدين ،فهو لا يزال شرقيا .. »

ولما سافرت مى إلى لبنان ، لم يذكرها أحد من أولئك الذين كانوا يتصلون بها وهم صفوة أصحاب الأقلام ، أن أحداً منهم لم يحاول أن يدافع عنها ، فلما عادت لم يزرها منهم إلا القليل على قبيل المجاملة .

ويقول سلامه موسى أنها عندما عادت من لبنان « كانت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى الـ بعين ، لقد قاست فى المستشفى كثيراً ، ثم عادت فلم تجد أحداً ينتظرها أو يترقبها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى ، وكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تنشج بالضحك » .

ثم ماتت مى ...

* * *

لا شك أن « مى » قد سبقت الزمن ، حين ظهرت على هذه الصورة ، .. فقد كان أصدقاتها يعجبون من صالونها ، وكانوا يحبون فيها صورة المرأة التى يقرأون عنها فى الأدب العربى ، فقد كانت المرأة المصرية إذ ذاك لا تزال

---

(١) روت لى هذه القصة السيدة جيلة العلايلى تلميذة (مى) الاولى فى مصر والشرق

محجوبة عن الحياة الإجتماعية المصرية (١٩٢٢ — ١٩٣٨) ويبدو أنه لم يكن من الممكن أن يتزوجها أحدهم ؟ فقد كانت غلبة الطابع الشرق التى لا تزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك .

ولقد حاول الرافعى ان يتزوج « مى » ولكن شيئاً كان يقف فى وجه هذه الفكرة هى أن « مى » على هذه الصورة التى ترضاها لحياتها ، لا يمكن أن تكون لرجل واحد ، ولا يمكن أن ترضى طبع الشرق الحساس الذى يريد أن تكون المرأة له وحدة .. .

* * *

هذه قصة حياة « مى » ، أما أدبها فقد كان لوناً جديداً ، ولا شك أن « مى » أنشأت مدرسة أدبية نسوية فى الأدب العربى المعاصر ، تلمذت عليها الكثيرات وفى مقدمتهن جميلة العلايلى ، والكاتبة العراقية « مليحه » وهند سلامة وغيرهن كثيرات ...

وأبرز مايتميز به أدب «مى» هو الحزن العميق ، الذى يبدو من وراء هذه الصور الشعريه المشرقة .. كانت يقول « ..أن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم » .

كانت حياتها تجهما وعبوساً ، كانت حادة صارمة،فلم يكن أدبها إلاوسيلة للتنفيس عن النفس المكتئبة على صورة تريح الأعصاب .

« العيون(١) .. تلك الأحداق القائمة فى الوجود كتعاويذ من حلك ولجين تلك المياة الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن بالشواطىء وأشجار الحور .

تلك التى تذكرك بصفاء السماء ، والتى تريك مفاوز الصحراء ، والتى تمرج بخيالك فى ملكوت أثيرى كله بهاء .. وتلك التى يتسع سوادها أمام من تحب ،

---

(١) أشعة وظلال أصدرته مى سنة ١٩٢٣ .

وتتكشف لدى من تكره . وتلك التى تثور بلحظة : أنت عبدى والتى تقول : فى حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ وتلك التى تبتسم وتتوسل . وتلك التى تقول ألا تعرفنى ؟ !

العيون . جميع العيون . ألا تدهشك العيون .. »

بدأت مى حياتها الأدبية بتحرير فصول فى جريدة أبيها « المحروسة » تحت عنوان « يوميات فتاة » .. كان ذلك سنة ١٩١٥ ، ومن أجمل هذه الفصول مقال « غرفة فى مكتبة » تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب فى إحدى غرف الجامعة المصرية .

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية ، غير أن بعض المحيطين بها نصحوها[1] بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ، ثم أخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لها ملكة عربية شجعتها على الترجمة .. فترجمت ابتسامات ودموع .. وغيرها .

« وبعد[2] ذلك بدأ يجتمع عندنا شبه « صالون أدبى » كل يوم ثلاثاء مكث أعواماً تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا صبرى فاقتبست منه تهذيباً عربياً بما كان يلقى فيه أثناء الحديث باللغة العربية الفصحى .

. . وقال لى الأستاذ لطفى السيد أثناء الحديث معى « لا بد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم ، لكى تقتبسى من فصاحة أسلوبه وبلاغته » فقلت له « ليس عندى نسخة من القرآن » فقال « أنا أهدى لك نسخة منه » وبعث لى به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربى وما فى القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى .. »

وفى خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ودرست تاريخ الفلسفة وعلم الأخلاق على المستشرق دى جلارزا ، كما درست تاريخ الأدب العربى والدول

(١) أهم حادث أثر فى مجرى حياتى بقلم « مى » « هلال فبراير سنة ١٩٣٠ » .
(٢) نفس المصدر .

الإسلامية ، ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، باليقظة الأدبية والخلق الجديد » .

وكان أول كتبها في اللغة العربية عن « باحثة البادية » صدر سنة ١٩٢٠

« وعلى ذلك أستطيع أن أقول أن أهم ما أثر في مجرى حياتي الكتابية ثلاثة أشياء : أولاها النظر إلى جمال الطبيعة ، والثاني القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة ، والثالث الحركة الوطنية التي لولاها ما بلغت هذه السرعة في التطور الفكري .. »

* * *

لقد تركت « مي » عدداً وافراً من المؤلفات والكتب والآثار المنشورة في عدد من الصحف والمجلات . وهي في مجموعها تعطي صورة واضحة للأدب النسوي الجديد في أولى صوره الكاملة .

وتعد «مي» بحق رائدة الآداب النسوي المعاصر ، وما أظن إلا أن الكثيرات ممن جئن بعدها قد اتبعن طريقتها في تصوير النفس ورسم صورة العاطفة . لقد كان أدب « مي » خالصا للفن لم تحتوره عيوب المناسبة السريعة ، أو النزعة الصحفية .

« مى »

ومآساتها

« . . . قد يبوح المرأ للناس بأعظم أمانية . ولكن الأمنية العليا تظل سراً مكتوما بينه وبين نفسه . ولو هو فقد كل شيء آخر لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى مايخفى من قدس أسراره . . . »

« وماء السيل يتدفق على الجلاميد القاسية ويتشعب بين النواتئ الوعره ، وينصب فى شلالات مضطربة وانحدارات مرتعشة . يعثر فى أغواط سيئة المضاف . . فينزع إلى مزاولتها ، إلا أنه يفشل .

ثم يمضى فى جريه قرب الشواطئ الباسمة ، ويتغلغل بين الحدائق الغناء فيرتاح إلى ظلالها . ويهيم فى صمتها الشامل الذى لاتقطعه غير أنشودة الناعورة الساذجة . .

ثم يسترسل السيل فى مجراه وقد تلق إليه يد متأنية بزهره زرقاء هى شارة الحب فلا يحاول تعرف تلك اليد . أما هذه الزهرة النحيفة التى يحملها عبابة فعبثا يسعى للاتحاد بها والتوحيد وإياها . . »

« . . . فى بعض الساعات الألم تشعر بأن للزمن كهفا تخفره الضوارى وأنت وحدك فيها سجين والناس فوقك شامتون ، يرقصون ويمرحون . . »

* * *

وأن مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباة تحت أكاليل العزم والجهاد . وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة

وحلت عليا نظرة لم تعد عبدة المجتمع ولا عبدة الحاجة ولا عبـــدة الرجل ولا عبدة قلبها , وهو أعظم جائر مستبد .

* * *

هـذه « مى » فى بعض خواطرها الطليقة تعطيك صورة الأنثى المشوقة المحرومة الطامحة المتطلعة إلى الغيب ، التى كان الأدب بالنسبة لها افضاء وتنفيس ، فكانت بذلك مصدر الوحى لعدد من الكتاب والأدباء .

روحى على دور بعض الحى هائمة   كظامىء الطير تواقا إلى الماء
أن لم امتع بمى ناظرى غدا   أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وما أظن أن « انسانة » فى تاريخ الأدب المعاصر تستطيع أن تحتل مكانة « مى » ، فقد برزت فى الأدب فى الوقت الذى كان الحجاب فيه لا يزال مضروبا على المرأة ، وكان لها فى ذلك الوقت « صـــالون » يرتاده الأدباء والفلاسفة والمفكرون .

وكانت هى جميلة ، ومحدثة ، ولبقة . . . وقد انتهت حياتها على صورة مزعجة لم يتمكن بعد أحد من الذين عاصروها ، من تصويرها !

ولاشك فى أنها قد أحبت ، ولاشك فى أن الذين عرفوها قد أحبوها . . وما من أحد منهم يتحدث عنها إلا ويصور هذه العاطفة .

ولا استبعد أن يكون مرضها العصبى ، وجنونها ، وموتها فى النهاية نتيجة لصراع بين العاطفة والتقاليد والعرف والدين ، لم يستكشف بعد على صورة واضحة .

وهذه أضواء من كل مكان على حياة « مى »

يقول العقاد وكانت قاسية على نفسها ، كثيرة الانطواء على داخليتها ، وكان يخيل إلى أن احتراسها المفرط خصلة عميقة فى سريرتها لازمتها فى ريعان الشباب لأنها كانت قليلة الامن والطمأنينة إلى الناس . وكانت على دماثتها

لاتدع الحواجز بينهم وبينها ، ولاتقفأنعيش وراء صورة من الحيطة والكتمان.

وكنت أشفق من فرط احتراسها وكلفتها ، فقلت لها يوما بجترئا على مصارحتها : أنا لست على رأيك ياصديقتى فى نفع الحذر وجدوى الاحتراس ، بل عندى أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا من ترك الحذر وقلة المبالاة . فلا تبالى ولا تحترسى وانطلقى فى حياتك فذلك أخف الضررين .

ويقول الزيات «كان لمى ولصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات . ألهمت صبرى ، وأوحت الرافعى ، وألهبت جبران ،ثم أخرجت من سواء المداد صورا مختلفة الألوان ، متنوعة الافنان ، أضافت بها إلى ذخائر الفكر الإنسانى ثروة ثم تقدم العصر وطوت «مى» أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس ، وورد أبواها متعاقبين حياض المنون ، فاستكانت للحزن وأخلدت الى الوحدة . فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع ، وانحدرت مى فى طرق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة ... هى فتـــاة بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وفى كل حديث وتختصر للجليس سعادة العمر كله فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة . »

ويقول زكى مبارك «كنا جماعة من المحرومين لانعرف الجمال إلا إذا قرأنا كتاب تزيين الأسواق أومصارع العشاق وفى إحدى الأمسية جاءت الآنسة مى عن الحجرة التى تلقى فيها دروس الفلسفة العربية ولأنى كنت قد نشرت كتابا عن حب عمر بن أبى ربيعة الفاجر الملعون فقد تجنبتنى ولم تجد أوفق من الشيخ أبى درة فى لحيته المستديرة وقفطانه الفضفاض لتسأله وكانت المحاورة

— أين حجرة الفلسفة العربية يا أستاذ ؟

— نعم يامولاتى ، نعم يامولاتى

فتقدمت إلى الآنسة فدللتها على السبيل وعدت إلى أبى درة فقلت له : فضحتنا ياسيدنا الشيخ ، ماهذا الهذيان ؟

وانتظر الشيخ أبو درة حتى أفاق من أغمائه ثم قال :

ـــ سبحان الله أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال .

وسألنى الأستاذ اسماعيل رأفت عن معنى كلمة « مى » فلم أعرف الاجابة فقال لى ، أن مى معناها الخز وهى كلمة فارسية .

وكتب أمين الريحانى إلى « مى »

« أدهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لاتعرف يسراها ما تصنع يمناها . فهى لاتسمح لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها مفاوز الشوق ، ومروج الحب بغير نظرة تذكرها بما فى الحياة لفلاسفتها ، وبما فى الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة ، وأدغال مزهرة منعشة . وانت بامى تذكرين السر فى الاثنين . متمة بالجمالين . وأشكر الله أنك كاتبة فلا تستأثرين بما تتمتعين ، وأشكر الله انك صديقتى فتذكرينى مع من تذكرين »

زكى مبارك



لا شك أن «زكى مبارك» من الشخصيات الأدبية القوية ذات الأثر الواضح فى هذه الفترة التى نؤرخها . فقد شغل الصحف باتجاه على صورة من الحيوية والتدفق لفت إليه الأنظار بقوة ، كما أصدر طائفة من المؤلفات الضخمة التى أثارت الكثير من المساجلات ، ويتميز أدب زكى مبارك بميزتين غاية فى الوضوح : العاطفة والصراع .

فهو كاتب عاطفى متدفق ، تغلب عليه الطلاقة والجرأة والحرية فى عرض مسائل الحب وقضايا الوجدان على وجه يكاد ينفرد به .

ويرسم هذا الأدب لمبارك فى نفوس النقاد صورة الرجل الذى تعصف به النزوات والعواطف إلى أبعد حد .

ويتصل بهذا حديثه عن نفسه الذى يكاد ينتظم أدبه كله ، والكتابة الذاتية لا عيب فيها ولا يغض من شأنها إلا أن تكون حلقات دائرة من المدح والثناء والدوران حول معنى واحد ، بل هى أصدق ألوان الأدب .

وعندنا طائفة من الكتاب الذين يطوون عاطفتهم طيا فلا تستطيع أن تلمح أرواحهم ولا ذاتيتهم .. مما يجهد الباحث أو المؤرخ إذا أراد استعراض ملامح أرواحهم وشمائل شخصياتهم .

زيدان



ظاهرتان فى حياة جرجى زيدان توحى بالعظمة وتلفت النظر إلى هذه الشخصية الضخمه التى تركت آثاراً قوية متعدده فى الاجتماع والأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتاريخ : انه هاجر فى مطلع شبابه إلى مصر والهجرة تعطى معنى القوة والثقة بالنفس والرغبه فى العلا والهروب من الواقع المر إلى الآفاق الواسعة . والثانية أنه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعدده حتى كسب قدراً من العلم أهله ليكون قائداً من قاده الفكر فى مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع إلى المجد فى نفس الشاب الذى عاش يكتب للناس ويدرس أسرار الوجود والأزلية . هذا البحث الذى شغل أوقات فراغه والذى قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول « لقد اكتفينا فى هذه الحياة بفخرنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الأخرى لعلنا ندرك من تلك الأسرار ما يشفى الغليل »

ولم يقف أمر طموح جرجى زيدان عند هذا الحد بل أولع بالاسفار ، فقد ذهب إلى السودان وسافر إلى الاستانة وأوروبا وفلسطين ولاشك أن

يفخر بأنه فلاح ، ثم أتيح له أن يتصل بالبيئة الحديثة التي كانت تدور حول محورين هما « الجريدة » . والجامعة المصرية » التي كانت بدعة العصر إذ ذاك . . وجاهد زكي مبارك حتى استطاع أن يتم دراسته في مصر ، وسافر إلى باريس ليحصل على أرقى أجازاتها العلمية ، وبذل جهدا مضنيا ، وكافح كفاحا مستميتاً ، كان ينبعث بلا شك عن طموح قوي وإصرار مؤكد .

وتتلمذ على المرصفي والمهدي ، ومال بطبعه إلى شعر الغزل والنسيب وقرأ العباس بن الأحنف والشريف والمجنون وعمر بن أبي ربيعة وظلت هذه الرموز الأدبية تسيطر على طابعه الأدبي طوال حياته . واشترك في الثورة المصرية ١٩١٩ واعتقل في الاسكندرية وقال « لقد أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هياب . »

* * *

ورسم زكي مبارك جهاده في سبيل الظفر بإجازاته العلمية من باريس في مقدمة كتابه « النثر الفني » في صورة اخاذه « .. فإن رأوه — أي الكتاب — أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكروا أني ألفته في أعوام سود لقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر ، فقد كنت أشطر العام شطرين أقضي شطره الأول في القاهرة ، حيث أؤدي واجبي وأجني رزقي . وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء واستلهم المؤلفين ، إلى أن ينفد ما أدخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت . »

وغلبت النزعة الوجدانية على رسالته التي تقدم بها لاجازة الدكتوراه « النثر الفني » وكان هذا من العيوب التي أخذت عليه .

كما أن نزعة الصراع غلبت عليه وهو في ميدان البحث الجامعي فاصطدم بأستاذه « مرسيه » إذ قدم في رأيا يعارض به مذهب الأستاذ يقول « .. وقد تصحي

مسيو ماسنيون وأفهمني أنه ، أي مرسيه — رجل صعب المراس ، وأن منزلته في المعهد العلمي عظيمة ، وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال ، ولكن ، كتب الله أن لا أنتصح . . فابتدأت رسالتي التي قدمتها للسربون في نقض آرائه من الأساس . فغضب الرجل وثار . . وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لايوائم الروح الفرنسي في البحث . وصممت على إبقاء الفصلين . وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره فمضى يعاديني عداء خفيا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف ، ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه ، فابقيت الفصلين اللذين أغضباه »

. . .

وقد أوتى زكى مبارك أسلوبا قويا ، لاشك في قوته وبلاغته ، وقلمه طليق عاصف ، وهو من النوع الذي لايعرف الوسط والذي يحب بكل قواه ، ويبغض من أعماق نفسه .

يقول « .. كنت في مطلع حياتي الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمي والصابي وابن العميد . ثم شاء الله عز شأنه أن أتعمق في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي وأن أقبل بنوع خاص على ماكتب النقاد الفرنسيين الذين أطالوا القول في دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التي تشوق الحواس . هناك جمال النفوس الصافية والأرواح الهائمة والقلوب الحساسة » .

ويصف طريقته في الكتابة بأنه إذا كتب خطابا في المساء « فاتركه

بلا تظريف للسهل مراجعته فى الصباح وليتى الفرصة للحذف منه والاضافة إليه ، فن المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات . وقد تنكر فى بياض الصبح بعض ما كتبت فى سواد الليل . . »

ويقول أنه لم يعرف الفرق بين التسويد والتبيض « . ولا استبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع ، وكنت أعجب حين أسمع إن من الكتاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحيته لمواجهة القراء . كان رأيى ان جرى القلم على القرطاس هو جرى الجواد فى الميدان وهذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضنى لكثير من الجراح لأنى لا أملك صده حين ينطلق . فما بال الأقدار تروضنى بعد الجموح وتفرض على أن ألتفت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجرى فى ميدان البيان[1] . . »

. . .

ولعل أبرز مايلفت النظر فى أدب زكى مبارك صورة المرارة التى تنتظم أدبه كله ، فهو يصور نفسه بصورة الرجل المظلوم الذى صارعته الأحداث وشق بها ، فحس بعنف الخصومات والمتاعب الذى صادفها فى حياته يقول « مانبغ نابغ فى الشرق لهذا العهد ، إلا بقوة ذاتية حته وعصمته من كيد الخذلين والموقين فهم كالأشجار التى تنبت فى الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير »

ويحرص على أن يصور نفسه فى صورة الرجل الفرد المعتزل « قضيت دهرى بلا نصير ولا معين ، وسأظل كذلك لاقيم الدليل على أن من يستعز بالله لا يخفق ولا يضيع » ويصور مدى ضيقه بالناس ورغبته من مجتمعهم . . « لقد أقمت دارى على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ولأنسى أنى موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولاناجى موات البادية حين أشاء . . »

---

(١) الرسالة : ٢٠ يوليو ١٩٤٢ .

ثم تقع الأزمات وتسود الدنيا من حوله ويبين له غدر من كان يثق بهم فيكتب « لقد علمتنى التجارب أن الإنسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الإنسان . فهناك قوة ربانية تؤيد الجاهد فى سبيل الرزق الحلال . . »

ويتحدث عن الصداقات . . « لقد كنت أنظر فى رعب وفزع إلى الصداقات التى تهدمت من حولى فى الأعوام الأخيرة ، وهى صداقات أنفقت فى بنائها ما كنت أملك من كرم الوفاء فى عنفوان شبابى » .

ويصف نفسه فى مرارة تدل على مدى الألم الذى يغمر نفسه من تصاريف الحياة « . . نحن قوم كوتنا صروف الأيام والليالى ، فإن اكتوت أيدينا فسنملك من السيطرة على القراء أكبر مما نملك ، وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا وهو عندنا غادر جحود . وقد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن فى سعة من العيش وسيرتقى ذوقك فتدرك أن الخواص لا يشكون جوع البطون ، وإنما يشكون جوع القلوب » .

ويصور مبارك رسالة الأديب وصلته بالحياة حين يقول : « . . . لكم أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء فسترون أن أبلغهم أثراً فى أنفس الجماهير وأقدرهم على أسر القلوب وغزو القلوب وامتلاك النفوس . هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء وعرفوا كيف تقسو الحياة وكيف تلين ؟ أولئك الذين يكتبون وفى كل حرف أمر ظاهر أو غرض دفين . . . »

وحين يتصل قلم زكى مبارك بالخصومات يبدو غاية فى الشراسة والقسوة « . . إن[1] الذين يعادوننى لا يعرفون عواقب ما يصنعون . إنهم يجهلون أن العدوء يفسد أمعائى ويحوجنى إلى زيارة الطبيب . . وسترون إن امتدت الخصومة بينى وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحتف وإن اعتصمتم بشاهقات البروج . .

(١) البلاغ — الحديث ذو شجون : يونيو ١٩٣٠ .

لقد بدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعاً لا يسمعون منه غير أنغام الحنين . ولكن لؤم اللئام حولنى إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر والطير والحيوان ، ولا أذكر الإنسان فما سمعت بأخباره فى هذا الزمان .

أما بعد فلله نعمه فى كل شىء ، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه ويرهف وجدانه ويقهره على حمل السيف . وقد جربت ذلك فى نفسى وفى قلبى . وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم فى اليقظة والمنام . . . »

* * *

ويبدو « زكى مبارك » فى صورة عاصفة من الحيرة إذا اتصل الحديث بنفسه . . « وأعود إليك ياصديق فأقول إن الأزمة الباقية هى أزمة القلب ، فقد فهمت كل شىء وعرفت كل شىء . فإن قلت لك إنى أشكو خيبة فى الحب أو إخفاقاً فى المجد ، أو غدراً من الأصدقاء . فاعلم أن هذه محرجات هينة ، تنزعج لها النفس لحظة ثم تزول . وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم . وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما فى أنفسهم من القلاقل والثورات . وأنا لم أنجح فى شىء من ذلك لأن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات . أو حزب من الأحزاب . فأنا بين المؤمنين ملحد وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار . وفاجر عند الأبرار . وأنا فى كل بيئة أجنبى وفى كل أرض غريب . وهنا يكون الفزع الأكبر إذ أعود إلى قلبى وجها لوجه ، وهو قلب خطر ، والموت عندى أهون من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب . فليت شعرى أين المفر وأين يكون الفرار . . . »

ويقول عن نفسه « ما رجعت إلى نفسى مرة إلا تهيبت اقتحام ما فى

شعابها من وعور وصخور وأشواك . وقد وقفت مرة على ساحل النفس فى ظلمات الليل فرأيتنى عندها من الغرباء . . »

وقد ظل — بالرغم من اتصاله بالأوساط الأدبية الأوربية — ريفى الطبع بدوى أسلوب الحياة وكان حريصاً على أن يقول كلمة الحق مهما كانت مريرة أو جارحة ، فكان لذلك أثره البعيد فى تخلفه وقيام الأحقاد من حوله وثورة العواصف فى وجهه وقد لقى من ذلك شططا وكان يستطيع أن يوفر على نفسه ذلك كله لو اصطنع شيئاً من اللباقة التى لا تحول بينه وبين الإفصاح عما يريد.

وهو يبغض النفاق أشد البغض ، ويحتقر الحظوظ التى يحصل عليها الناس من وراءه « . . فليظفر من شاء من طيبات الحياة تحت ستار التقى والدين . فتلك حظوظ سافلة لا يفرح بها إلا الضعفاء الذين يعرفون أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض به غير الأقوياء . . . »

ويمضى فى رسم هذه الصورة الجريئة « . . . لو كنت أتجرت بالتراب لصرت من كبار الأغنياء . ولكنى شغلت نفسى بما لا يفيد . فذرعت فضاء الله فى فرنسا إلى أن سبحت فى بحر المانش ، وذرعت فضاء الله فى العراق إلى أن سبحت فى شط العرب وألفت اثنين وأربعين كتاباً . . . واشتغلت بالتدريس عشرين سنة . . وكانت صراحتى تقطع رزقى » .

* * *

وقد لون زكى مبارك هذا الطبع الجرىء بأدب القوة . . والفتوة « إن الرحمة شىء جميل . ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على أساس الرحمة . والطبيعة نفسها لم يقم فيها وضع واحد على أساس الإشفاق ، وإنما قام كل شىء فى الوجود على أساس القهر والغلبة وسيطرة القوى على الضعيف » . .

ويصل إلى أروع معانى القوة حين يقول « . . الشجرة لا تحفظ الأيدى التى تعهدها بالرى والعناية . وإصلاح التربة والصيانة من العواصف وأضرار الرياح . ولكنها تحفظ اليد المعتدية التى تأخذ خنجراً وتحفر اسم صاحبها

على ساقها بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها » .

ويبلغ الدكتور زكي مبارك قمة القوة والإنصاف من النفس حين يتحدث عن الغزالي . ويذكر ماضيه معه . وكيف هاجمه ثم عاد فاعتذر إليه .

« إليك[1] أعتذر أيها الغزالي . . في سنة ١٩٢٢ كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب الأخلاق عند الغزالي . وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت فيها نار الثورة المصرية واكتوت يدي بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية . فأثر ذلك في عقلي وتفكيري إلى أبعد الحدود . وحملني ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالي للمجتمع السياسي وابتعاده عن الضجيج الذي كانت تثيره الحروب الصليبية في ذلك الحين .

ثم مرت أعوام راضني فيها الدهر بعد الجموح فعرفت أن الغزالي لم يكن من الجبناء وإنما كان من الحكماء . . . »

* * *

وقد عرف زكي مبارك بأنه من ذوي الصبر والجلد على مراجعة الأسانيد وأطروحاته الثلاث[2] تدل على مقدار ما بذل من جهد في التوفر على دراسة موضوعاته .

لقد قضى حياته الأدبية عاكفاً على الورق ، وشغل نفسه بالدرس ايامه ولياليه ، حتى حالت بينه وبين « اقتناص الفرص الشوارد » . . وقد مضى العام ولا أعرف طعم السهر في مغاني القاهرة » . . وسجل في بعض آثاره أنه لم يعرف الأجازات في صيف أو شتاء . . ولا يذكر أنه انقطع عن الدرس في يوم من أيام المواسم أو الأعياد ، حتى أيامه في البواخر كانت أيام قراءة وكتابة .

---

(١) الرسالة ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠ .

(٢) الأخلاق عند الغزالي ، والنثر الفني ، والتصوف الإسلامي .

وقد هاجم زكي مبارك كتاب مصر جميعاً بعد عودته من أوربا سنة ١٩٣١ واتهمهم بأنهم انتهبوا آراءه أثناء غيبته . وأذاع عن نفسه أنه يحفظ ٣٠ ألف بيت من الشعر . وقد أغرم بالنظم ، ونشر ديوانا ضخما ، وحسب نفسه في عداد الشعراء وهو من الكتاب الذين يحسنون التعبير بالترسل أكثر مما يعبر بالقريض ومثله في هذا المازني والعقاد .

. . .

أحب الرحلات والأسفار ، وكانت عماد مجده الأدبي سواء في باريس أو العراق . .. (١) رحلت عن مصر خمس مرات . وكنت في كل مرة أغمض عيني عن صفير الباخرة حتى لا أودع شواطىء الاسكندرية ولا أفتن النفس بفراق هذا الثغر الجميل ، وكان سر ذلك أني كنت أشعر دائما بأني أعيش في وطني عيش المغبون .

كانت الآمال التي بددتها الليالي تتمثل لخاطري كلما حان الرحيل فأتجلد وأتكلف الصبر على فراق الوطن الغالي . .

ويقف في حديقة باريس يناجي الطاووس فلا ينسى غربته . . ولا ينسى حرمانه . أيها الطاووس .. كلانا غريب في هذه الديار . ولكن الحسان تسعى إليك إسرابا إسرابا في الضحى والأصيل . أما أنا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب . من بستان إلى بستان . ثم أعود وليس لدي ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقاله المعذبون من شعراء الوجدان .

. . بك بعض مابي أيها الطائر الجميل . وليس لدي بعض مالديك من آيات الحسن والاشراق .. أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق وأنا أملك

(١) ذكريات باريس : ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٣ .

ذلك التل الأســـود المقصوف .. فيابعد بيني وبينك حين تقوم النفائس والأعلاق[1] » .

* * *

تزوج زكي مبارك مبكرا ، وكان لذلك أثره في اتجاهاته الأدبية والعاطفية جميعا . وأن عد من أجرأ المتزوجين إذ لم تحل هذه القيود بينه وبين المجد ، فهام على وجهه وجاهد ، حتى وصل ..

وهو يصف زوجته « بالريفية الفلاحة » .. التي عصمت قلبه من الصراع الذي يقع فيه الناس[2] ، ولكن الصراع النفسي بين حياته الخاصة ، ومثله العليا كان قد أنشأ له « عاصفة » أخرى لعلها هي التي حطمت حياته في النهـاية .

يقول « زكي مبارك » أنه صير الكتابة عن الحب فنا من فنون الأدب

وقد سبقه « الرافعي » إلى إنشاء هذا اللون وهما يختلفان في أساليبهما وأهدافهما وفي الطريقة التي يعالجان بها هذا الفن . أما « الرافعي » فيرى الحب فنا روحيا خالصا ، لا اثم فيه ولا فاحشة وإنما يراه زاداً وجدانيا يمد النفس الإنسانية بالقوة والحيوية .

أما « زكي مبارك » فيرى الحب على الصورة الطبيعية التي يلتقي عليها الرجل والمرأة ، بما فيه من صراع وماديه ..

وإذا كان الرافعي ومبارك يختلفان في الأسلوب والهدف ، فانهما يصدران عن طبيعة واحـــدة ، تكاد تتشابه حظوظهما في الفراغ النفسي والعاطفة العاصفة والحياة الاجتماعية التي قصرت عن أن تعطي النفس العبقرية كل

---

(1) البلاغ : ١٩٣١

(2) « ويسرني أن أسجل عترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة أمها وأختها فحفظت قلبي سليما من الهموم التي تزلزل عزائم الرجال » .

حاجتها فظلا ظامئين إلى الحب والجمال .

« حديثى[1] عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به مايتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء . وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع بها ظلمات الزمان .

الحب لايغزو إلا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود فى أوقات الحرب ..

أن التوتر الذى يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع مابيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لايهتفون بغير أوطار القلوب[2] » .

. . ويصور زكى مبارك فتاة ، لاشك كانت بعيدة الأثر فى مشاعره وحياته فى باريس . . . « وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد . وهى أرق من الزهر وأكثر أشراقاً من الصباح .

.. أتكون هـــذه الفتاة شبيهة بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب . . . أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يساعده القدر المجنون فيملأ جيبه بالدراهم ولو كان من الأغبياء .

لك يارب حكمة فى أذلال هذه الروائع الفنية التى زينت بها الوجود . . . »

. . . وهو يصور أزمته النفسية فى خطاب أرسله إلى « محمد السباعى » وهو فى باريس . . .

« بقى ياصديق أن أعترف لك فى صراحة واخلاص ، انى أصبحت أحقد أشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة ، وهما الأدب والمرأة . .

أحقد على الأدب لأنه لايستقيم له حال إلا إذاحمل صاحبه على المخاطرة فى

---

(1) زكى مبارك : 19 فبراير 1940 الرسالة .

(2) كتاب « ليلى المريضة بالعراق » هو عماد المذهب الادبى فى الحب لزكى مبارك .

خلفاء الوجود ، ولن تجد فى العالم كله أديبا ذا مكانة الأولة فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لايؤمنون بوجود الأديب إلا إذا رأو أحشائه تحترق بين السطور .

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن تراها تلتمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك .

أضف إلى هذا ، ياسيد سباعى ، أن هنا إنسانة فى الحى اللاتينى لاالحى الحسينى — إنسانة من بنات حواء ، حواء المذكورة فى التوراة والقرآن ، حواء التى نقلت أبانا آدم إلى صفوف المناكيد . . . »

وتصور السيدة جميلة العلايلى مأساة الدكتور زكى مبارك على هذه الصورة « عرفت أن الرجل إنسان وشاعر . وقد كافح وناضل وتسلم حتى بلغ أرق الشهادات . فكان من المفروض أن يصل إلى مركز يعادل إن لم يفضل مراكز أقرانه وزملائه . ولكنه ظل حتى وفاته موظفاً فى وزارة المعارف .

وقد تزوج فى الصغر بامرأة دونه فى العلم والتفكير . فلما نضج حسه وعقله وجد قلبه فى حاجة إلى قلب وعقله فى حاجة إلى إلهام فأحب . . وكان بينه وبين من يحب حاجز من الفضيلة لايمكن اجتيازه .

إذن كان الرجل مظلوما محروما . وأى رجل مظلوم محروم ؟

زكى مبارك صاحب القلب الكبير والعقل الناضج الناقد ، والذكاء الحاذق . فكيف يتأسى وينسى ؟

وكان يجب أن يغالب الظلم بالاحتمال ، والحرمان بالصبر والنسيان . فلم يجد أمامه غير الشراب ليخرج من دنياه إلى دنيا مظللة لا تكشف له آفاق العدالة ومفاتن الجمال . ويقينا لو نال حقوقه العادلة وارتوى قلبه لظل حافظا لكيانه وقواه حتى ساعة الموت . . . »

---

(١) مجلة « الأهداف » فبراير ١٩٥٢ .

ظل زكي مبارك أكثر من عشرين عاما يكتب بعنوان «الحديث ذو شجون» وقد تنقل به من البلاغ إلى الرسالة إلى المصري .. ثم عاد به إلى البلاغ مرة أخرى.

وعاش زكي مبارك حياته مقتحما . أحدث ضجة في الأزهر، وفي الجامعة وفي باريس وفي بغداد . وظلت آراؤه في الغزالي والقرآن ووحدة الوجود موضع السجال والنقد ..

ولعله كان يستر بهذا الصراع عاطفته المشبوبة ، ويداري نفسه المحترقة الملتاعة . . وكتاباه عن باريس وبغداد غاية في الجودة وهو لايبالي في سبيل الصراع الأدبي ما يكون من نصيب صداقاته . . ولكنه كان يبدو من وراء كتاباته نقي الصدر .

يقول زكي عبد القادر « .. ما من أحد من الناس كان يشعر بموجدة نحو الدكتور زكي مبارك حتى هؤلاء الذين هاجمهم . فقد كان رحمه الله طلق النفس ، رقيق الطبع ، كان فنانا أصيلا . .

. . لقد أحب الحياة بشرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها أعمق مايكون الحب . فكان يرى في بأسائها النعيم . وفي نعيمها طيف من أطياف الجنة . غناها وشكاها . تألم فيها وتوجع . صبر عليها وصابرها . ولكنه لم يبغضها قط . . . »

وقال « الزيات وهو يصور حماسه وعناده » أنه لو استطاع أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتقى كثيرا ما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة . . . »

وهو لايعق فطرته ، حين دعي إلى كتابة القصة قال « من رأيي أنه لايجوز للكاتب أن يعق فطرته فيكتب فيما لا يحسن من الفنون وأنا مفطور على النقد الأدبي وقد تفوقت فيه . . . »

ومن كلماته الصريحة :

« الاثم الجارح أسلم عاقبة من التقى المصنوع »

« نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ »

« كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل ولو عاشوا فى رحاب عشيرتهم الأقربين »

ويدافع عن الاتهام الذى طالما وجه إليـــه بأنه يدور حول نفسه فيقول « أن تصوير هموم النفس ، وما يحيط بها من مخاوف وآمال . هو أدب صحيح جعله الكتب السماوية من شمائل الأنبياء . فما العيب فى أن يكون الحديث عن نفسى من خصائص أدبى . وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعـــرف إلى نفسى . وهل كانت روائع الأدب فى جميع الأمم الا أحاديث نفسية . . . »

ويبدو زكى مبارك وهو يتناول الشريف الرضى أو عمر بن أبى ربيعة أو مجنون ليلى كأنما يتناول شخصيته هو . .

وهو بين هذه الصورة من الحب المحروم ، والعاطفة المكتوبة ، والاحساس بأنه دون ما يستحق من مكان فى عالم الأدب والحياة . . يبدو صوفيا زاهدا وليست هذه الصوفية والزهادة الاغشاء لاشواق عنيفة تطوف بالروح ، وطموح متوقد يتصعد فى السماء . .

مأساة زكي مبارك

لماذا تحطمت حياته ؟

« أنى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلته . . لقد استهلكت انشاءاتى الكمية الوزنية العقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة فى مختلف الفنون . أجل استهلكت دراساتى ومؤلفاتى ما كان لدى من ذلك قبل الأوان وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنى أريد مواصلة البحث والدرس . ولكنى لا أجد لدى قدرة على ذلك . وماذا يكون الكاتب أو المفكر إذا كف عن الانتاج . هل يكون شيئا أكثر من ذبالة إنسان وهل أرضى بمثل هذه المكانة؟ إذن ليكن لى فى الخمر مخبأ وملاذاً أقضى فيه ما بقى من ثمالة العمر دافعاً ثمن العلم الذى حصلته .

هذا ختام حياه . . هذه الكلمات التى تقال فى ختام المأساة فى مسرحية حياة قبل أن ينزل الستار .

لقد عرفت زكي مبارك فى عنفوان شبابه وأحببته . وكتبت عنه فصولا وكلفت بادبه . ثم لجمت عند ما رأيته يتحول . والأزمة النفسية تهد كيانه وتحطم معنوياته .

وعندما وقفت فى تلك الساحة الواسعة انتظر وصول جثمان زكي مبارك لتشييعه . . كان يجول فى نفسى خاطر غريب . . فكنت التفت يميناً وشمالا . . أبحث ، أبحث عن ماذا ؟

كنت أعتقد أن « انسانه » لا يعرفها أحد ، تقف بعيداً ، فى مكان ما لترى جثمان هذا الرجل الراحل .. وهو يتوارى ..

كنت أعتقد أنها وقفت لتلق نظرة الوداع على الرجل الذى تحدث عن

الحب ، كأنه كل شيء في حياته ! وظني أن هذه الانسانة قد أرسلت دموعها ، ثم مضت ، واختفت خلف السحب !

كذلك كنت أتصور زكي مبارك ، انسانا أعطته الحياة كل شيء وحرمته مع ذلك من أعز شيء .. كان حائرا . . لأن الصورة الروحية التي كانت في أعماقه لم تتحقق على وجه أو آخر .

كان زكي مبارك قد تزوج مبكرا . . ولم يدع مقالا . . ولا مناسبة ، دون أن يتناول المرأة والحب والجمال .. وقصصه ، ولياليه في العراق ، وفي الزمالك وفي مصر الجديدة وقصائده عن حب ليلة الثلاثاء غيرها .

كل هذه كانت صورا لنفسية قلقة مشوقة ، طامحة إلى الحب بعد أن بلغت غاية المجد بل أنني أرى أن تلك المعارك التي كان يثيرها ويسق فيها الكتاب ألوانا من الصاب والعلقم ، انما كانت مرآة من مرائي الحب المفقود .

كان زكي يحس النقص النفسي ، ويحس الفراغ المنيف ، ويخلق كل هذه الأجواء من حوله ليغطي على المتاعب النفسية والوحشة الروحية بذلك الضجيج .

كان زكي مبارك يحس بأنه في حاجة إلى روح . . إلى انسانه ، في مثل ثقافته وأهوائه .. وكانت تلك الصور التي يبتدعها حين يكتب قصة من القصص الخيالية ، انما يريد بها أن يرسم تلك الأعاصير التي تدور في أعماقه !

فلما طال به الزمن . . ولم يجد الوسيلة إلى الافضاء ، أخذ يغطي على الضجيج النفسي بالخمر . . ثم أسرف فيها أي سرف . . فأثر الخمر الرخيص وبدت آراؤه بعد ذلك بالنسبة للمرأة غاية في النقمة والعنف فكتب عبارته التي أثارت ضجة هائلة حين قال .

« لقد كان أبي يجرب نعله الجديد على رأس كل زوجة من زوجاته »

وهنا ثارت حوله عاصفة عنيفة أثارها الشبان والكتاب والفتيات .

ونظر إليه الناس في سخرية وابتذال .. وقالوا ما هذا الذي يجيء في الزمن الذي تقف المرأة فيه كالآلة المطواع فيقول فيها مثل هذا القول .

من هذه النقطة انحدر زكي مبارك وتردى .

ولكن زكي مبارك إلى ذلك كان معافى النفس ، كريم السجايا ، لا يغدر ولا يخون ولا يخفي مشاعره ولا يراوغ فيها .

مصطفى عبد الرازق



هل نستطيع أن نضع مصطفى عبد الرازق بين الكتاب والأدباء .. رغم قلة الآثار التى أنتجها . . حقا ، لقد عنى بدراسة حياة محمد عبده وجلاها وكان مرجعا هاما فى هذه الحياة . . وكتب إلى جوار ذلك أبحاثا فى الدين وبعض رجال الفقه ، ولكن ما علاقة ذلك بموضوع البحث الذى نحن بصدده .

إننا ندرس هذه الطائفة من الأدباء التى كانت الطليعة فى الأدب العربى الحديث . وهل يكفى كتابه عن الشاعر المصرى الرقيق « البهاء زهير » ليجعله من هذه الصفوة .

ولكن مهلا فقد كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصاً وفصولا منشورة فى الكتب والمجلات والصحف لاشك أنها تضعه بين طائفة الأدباء المقلين الذين لم يتفرغوا للادب كفن وحرصوا على أن يكونوا فى صفوف العلماء الذين عملوا فى محيط الجامعة . وكان لهم لفيف من الطلاب والمريدين الذين بهرهم حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة الطبع التى كانت من مميزات هذا الكاتب الإنسان .

ولكن ما هو السر الذى دفع مصطفى عبد الرازق أن يفرد للبهاء زهير

بحثا خالصا . انى أربط بين هذا العمل الأدبي الوحيد وبين حياته الخاصة . فالبهاء شاعر رقيق حي ، هادىء النظرات ، متئد ، لا تطوف بحياته زوابع ولا عواصف ، ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون المغامرات أو يدخلون حلبة الصراع . . وهـــذا الطابع هو صورة من حياة مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئا متئدا . لا يصول ولا يجول ، على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم من ذوى العمائم ومن الأزهريين .

وكان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحيي المتوارى . وكان مثلا الأناقة والرقة والهدوء . كأنما الحياة عنده أغنية جميلة أو موسيقى هادئة . ولقد عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والاعادة والمراجعة والتغيير والتبديل فى الأثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس . وهو فى هذا يقول وكأنما يصف نفسه « أن الجزالة هى التطبع فى شعر البهاء ، وأن الرقة هى الطبع »

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع اعجاب كل من عرفه أو لقيه أو تلمذ عليه . . وما رأيت إنسانا التقى به أو عرفه إلا وهو محب له ، كلف بهذا الحب ، ولكن ماذا تعطى هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التى نقرأها لمصطفى عبد الرازق . هل يمكن القول بأن وراء شخصيته انسانا آخر . . قد كان وحيه والهامه مصدراً لهذا الطابع المصقول ..

لقد بدا هذا الكاتب حياته فى الأزهر ، هناك بين الكتب الصفراء التى تؤذى النفس وتذهب الصبر ، وتمنح كل شىء الا هذه الرقة وهذا السمت الهادىء الإنيق المشرق الذى يخيل الينا أنه لايعرف الحزن ولا الألم .

.. ونشأ مصطفى عبد الرازق فى الريف من الصعيد حيث الحياة لا تمنح هذا اللون من الأناقة البالغة . وكل هذا من شأنه أن يصيب الأسلوب بالبلاغة ويصيب الشخصية بالجفاف . .

ولعل مصطفى عبد الرازق يصور هذا المعنى حين يقول فى مذكراته عن

حياة الأزهر (١) ، أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعما ولا أشعر بفائدة فى تكوين ملكة أو تهذيب ذوق لهذه الابحاث المجدبة التى أفنى فيها حياتى جاهدا .. ثم أن فى أعماق نفسى قلقا ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هذا الوسط . . ويا رحتاه للمجاورين لا يفتأون يقبلون تلك الأيدى التى لا هى أيدى النساء الناعمة فتجىء فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هى مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها .. (٢) »

ولكن مصطفى عبد الرازق ، كان نسيجا وحده ، شخصيته صيغت وفق هذا الطابع من الرقى والهدوء والأناقة .

والا فهل قرأت مثل هذا لأديب نشأ فى الريف وتعلم فى الأزهر .

« المرأة هى المنبع الفياض لما فى الحياة الانسانية من حب هو أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن فى فطرة المرأة نوعا من السحر والخلابة والجمال هو الذى يسمو بخيال أهل الفن إلى ما يبدعونه فى آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى فى قلوب المستنيرين نار العشق المظيم وإذا كان جمال الحياة فنا وشعرا وحبا فان المرأة هى التى تبنى كل مافى الحياة من معانى الجمال »

فهذه الطبيعة الانسانية المشرقة ، هى طبيعة الأديب الذى يأخذ من كل شىء ولا يطغى عليه شىء من مذاهب القول أو الفكر . هذا الأسلوب الرشيق الذى يكتبه مصطفى عبد الرازق هو صورة نفسه المشرقة . هذه النفس الذى ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها

(١) مذكرات مصطفى عبد الرازق آية من الايات ولطالما طالب أصدقاء الكاتب بنشرها وحدثنى الاستاذ عبدالكريم الخطيب وهو من أهل العلم والفضل أنه راجع هذه المذكرات فعلا وأعدها للنشر ولا يؤخرها عن الظهور الامقدمة يكتبها السيد على عبد الرازق شقيق الكاتب . وأنا انهيب به أن يفعل ويسرع ...

(٢) مذكرات مصطفى عبدالرازق — ٣ مايو ١٩٠٠ .

إلى آخر العمر . ولا يمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة . . .

« . . ثم يخرج إلى ساحة تبسم الانوار فيها والزهر . وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة . مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها . ومن حولها دكك متفرقة لمن ليسوا أطفالا . . وتحت فى بعض النواحى سيدة بيدها خطاب تقرأة فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم . وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها . وكم يأوى إلى هذه البركة من باك ومبتسم . ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . رديدكم أيها الأطفال العابثون بالماء »

لقد دخل الشيخ مصطفى عبد الرازق باريس بين صديقين كريمين ، وكان أحدهما يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معمما ، وعاد من فرنسا عام ١٩١٤ .

وكان قد التقى بجر حياته بالشيخ محمد عبده الذى كان بعيد الأثر فى تحويل مجرى هذه الحياة . لقد كان ضيق النفس بالأزهر فلما كتب إلى الشيخ زاره فى داره ونصح له بأن يستمر على أن يتولى هدايته إلى مطالعات فى غير أوقات الدراسة يقول .

اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطرمت فى نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها الشيخ محمد عبده فى عقول تلاميذه بما كنا نتلق عن شيوخ لم ترضينا معارفهم ولا مذاهبهم .

والحق أن مصطفى عبد الرازق . أخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل وتلك الطبيعة الثابتة التى لايتحول منها شيء سواء كان صاحبها فى القاهرة أو فى باريس ، فى الوزارة أو فى الازهر أو فى الجامعة .

وأخذ من الازهر اللغة والبيان والرصانة وأخذ من السربون التحقيق

العلى ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظا بطابعه . وفى يوميات ابراهيم الفزارى التى كان يكتبها عن نفسه وتختفى وراءها قوله «فى الجريدة»
. . إن حياتى ليست منطقية . ان الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة للزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية . أما جو قلق لنفس هادئة . ومعمعة حرون لطبيعة مسالمة . فليس من المنطق فى قليل ولا كثير . . .

كان منذ شبابه الباكر يتطلع إلى المجد ويرنو إلى آفاق بعيدة . لم تكن واضحة وضوحا صريحا فى نفسه ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه وتصورها هذه العبارات التى كتبها فى مذكرات الشيخ الفزارى سنة ١٩٠٥ .
. أنا أستيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ إلى مشاركة رفيق فى مطالعة إلى انفراد بالدرس حتى آوى إلى مخدعى قبل نصف الليل فاتر القوة متعب عصب الدماغ محتاجا إلى النوم غير واجد إليه سبيلا وليس لى من سلوه فى ثنايا هذا العناء المتتابع لامن لذة العمل نفسه ولامن ثمرته . . ثم ان فى أعماق قلقا ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هذا الوسط . . .

فى هذا السن كانت تغلب عليه طبيعة الحياء التى تعوقه عن ان يبث مافى نفسه للناس فكان يكتبه فى الورق . يقول
. كنت يومئذ شابا تفتق عنه غلائل الطفولة . ولم تكن بنيتى قوية . ولا اعصابى متينة فضعفت من اثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعرانى سأم من الدراسة فى الازهر واشتد ذلك السأم حتى صار المًا ملازما . وكانت طبيعة الحياة تعوقنى فى ذلك الوقت عن ان ابث مابى إلى احد .

ولكن هل اذهبت أوربا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء . . كلا فقد بقى مصطفى عبد الرازق رمزاً لهذا المعانى العالية النبيلة من الخلق . .

يقول الاستاذ محمود الشرقاوى[1] . . أن مصطفى عبد الرازق عرف برقة العاطفة والحياء والتواضع وحب الخير والاعتداء بالنفس . . وان هذه الفضائل كانت سبباً فى متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ للأزهر . وتفسيرى بكلمة متاعب فيه كثير من التساهل . وعند ما يكتب تاريخ هذه الفترة سيعرف الناس أى ظلم وأى مضض لقيه الشيخ فى مشيخة الأزهر لبعد أو تناقض مابين طبيعته وبيئته اذ ذاك »

وفى ميدان السياسة كان لايعرف النفاق ولا الحيلة . كانت طبيعة العالم المترفع طابعه هى . . وكان فى نظر تلاميذه أحد الأساتذة القلائل الذين حفظوا معالم الحق والخير والجمال كحقائق يمكن التماسها فى صورة إنسان .

وكان فى دراساته الفلسفية يحدث طلبته عن هذه المعانى . يقول الدكتور عثمان أمين « كثيرا ما كان فى يحدثنا الأستاذ فيقول إن هناك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الإنسانى وثبتت على احداث التاريخ وهى فلسفة كرام النفوس . أولئك الذين عاشوا العالم كله لا لأنفسهم . وظلوا على وفاق مع قانون المجد والسخاء . وكان أول من رسمها أنبياء الشرق ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء من سقراط إلى أفلاطون وارسطو . . والفارابى وديكارت وغاندى . . جميعهم قد استطاعوا أن يستشفوا جوهر الدين .

هذه الفلسفة تتلخص فى حالة نفسية يصح أن يطلق عليها الاسم الجميل الذى اختاره ديكارت : اسم « الأريحية »

وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى إلى اسعاد الغير مهما كابدت من عناء »

وصدق طه حسين حين قال أن مصطفى عبد الرازق كان كنزا من كنوز مصر ليس إلى استقصائه من سبيل . كان كنزا فى العلم وكنزا فى الخلق والسيرة والقدوة الحسنة لطلابه وأصدقائه والذين عرفوه من قريب أو بعيد .

---

(١) الرسالة ١٨ فبراير ١٩٥٢ .

وبعد فهل يمكن للآثار التى خلفها مصطفى عبد الرازق أن تعطينا سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التى نشرت فى الصحف على أنها « مذكرات قديمة »

هذه « عذراء الريف » تاريخها ١١ أغسطس ١٩٠٦ نشرت سنة ١٩٣٦.

« خرجت أصيل الأمس إلى الخلوات أطوف فى أنحاء المزارع حتى انتهيت إلى فجوة فى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن. فألقيت عباءتى فوق تلك الحشائش العذبة. واستلقيت إليها. وكان معى الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه وبهامشه زهر الآداب للحصرى. وجعلت أداول الكتابين فى القراءة. وأقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة. وبينما أنا مشغول بمحاولة الاجادة فى ما أشدو به متأثر النفس بمعانى الأغانى نفسها. إذ أقبل فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رؤوسهن ثم جلسن إلى جانب يسمعن غنائى. وكنت أراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن. ولما رأيت انسهن بصوتى غنيت من شعر أبى تمام.

.. ولم يكن يبدو على جاراتى مظهر الفهم ولكنى كنت ألمح فى أسارير صغراهن علامات التأثر كلما جعلت فى نغماتى أشبه أنين غرامى والتقت عينى بعينها عند منصرفى »

وفى اليوم التالى كتب فى مذكراته بقية القصة.

« ... رجعت اليوم إلى مكانى بالأمس فعادت وحدها ، الآنسة الفتية. شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طوالا. نحيفة من غير إن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئا وما يهبط أهيف من جسم كأنما صب فى قالب. فلست ترى فى خطوطه عوجا. شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال الجمال النسائى فى ثغرها. وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والإحساس الدقيق ..

دؤوب إلى الفتاة يدفعني شعور بأن إلى جانبها حظا من سعادتي وبركتي الحياة . ثم حييتها فردت من غير نفور . قلت : وحيده أنت اليوم . فأجابت أنني أحب الوحدة في كثير من الوقت .

قلت ان الميل إلى العزلة نزعه النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطي السلوان للأنفس المعذبة . . وليكون في ظلام الحياة نورا . .

قالت : إذ كانت الوحدة آيه الألم النفسي فما بالك تحبها وأنت منعم . قلت ان من وراء هذا كله مواضع الألم في قلب غير جامد . ولبثنا ساعة سكوتا نتبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ خفيف أوراق القصب تنحسر عن قادم فانتبهنا من تلك السكره الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى . . »

هذا هو مصطفى عبد الرازق في مذكراته . قلب كبير محب . . هذه العاطفة الحلوة الصادقة كانت الضياء لحياة الرجل . ومادة لأدبه . كان وهجها النفاذ الكامن في أعماق القلب يمنح أسلوبه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال . ويعطي روحه هذه السكينة والطمأنينة . .

السـباعى

صورة محمد السباعى فى نفسى قريبة الشبه من جانب بالمازنى ومن جانب آخر بزكى مبارك . .

فيـه هذه اللوحة التى حملها التاريخ القريب للأدباء الذين كافحوا فى سبيل الفن وعاشوا فى مسغبة وقلة ولم يخلفوا من ورائهم شيئاً . كان مدرساً موفور الرزق تتفتح أمامه أبواب المجد فى محيط التدريس والعلم ولكنه آثر الأدب وتجرد له . وحرر نفسه من قيود الوظيفة فأجهده ذلك غاية الإجهاد . . فلم يكن الأدب وحده صالحاً لأن يكون مورداً للأديب . . ولا يزال .

والأدب الرفيع صناعة شاقة . ومجهود موصول ، من غير جزاء ولا ثمن . ومتى كان ذلك . . كان فى عهد النحت والبناء . . ووضع القواعد وكانت صناعة الترجمة من الآداب الأوربية عنصر ضخم من عناصر النهضة الأدبية التى طلعت فى أوائل هذا القرن . وكان السباعى دعامة فى هذا المحيط . وكان متحرراً فى فن الترجمة من قيود الحرفية . . وكان كلفاً بكاتب واحد . . هو « موباسان »

. . ما فتحت البلاغ الأسبوعي مرة في سنوات ما بعد ١٩٢٦ إلا رأيت آثاره وقصصه المترجمة . ثم عاصرت ذلك السجال الذي وقع بينه وبين زكي مبارك سنة ١٩٣١ ، لقد أحس في آخر أيامه غدر الزمان ووجد ذلك الجهاد الطويل الذي عاش له مضيعاً عند الناس . وكان يتوق في تلك السن إلى أن يحس بكلمة التقدير والإعجاب . يده فراغ . وقلبه مشوق إلى الحسن والعاطفة ولكنه لا يجد إلا ازوراراً ... فصرخ صرخته التي أدمت القلوب . .

. . وأصبحت حرفة القلم عندي بعد ما كان لها من سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة . جافة جدبه . ناضبة مقفرة من الطرب والأنس . بل من العزاء والسلوى . وأصبح القلم في يدي أشد بؤساً ومسكنة من المزمار في يد الشحاذ المتسول . ترى نغمة أقرب إلى أنة الثكلى منه إلى رنة المسرور »

تلك هي أزمة السباعي النفسية التي كونت فلسفته في التبرم بالحياة والسخرية منها وقد نصح الشبان أن ينصرفوا عن الأدب . « وإذا أمكن أن يكون هناك دواء يبغض إليهم الأدب وصناعته فليسألوا عن مكانه ويشتروه بأغلى ثمن » .

وليس شك أن من ينصح بهذا لابد أن يكون قد ذاق من الأدب الويلات . لقد كان السباعي يعتقد في مبـــدأ حياته أنه يستطيع الاعتماد على الأدب ولكنه أخفق « انقطعت للأدب سنين عدة وأمكنني أن أعيش عيشة ليست أسوأ كثيراً من عيشتي الحاليه . وكنت أعتقد بادىء الأمر أنه سيجيء يوم أربح فيه من الأدب ما لا يقل عن راتب أكبر موظف في الحكومة » . . ولكن هذا الحلم كان سراباً خادعاً .

واشترك السباعي في تحرير الجريدة ومجلة البيان وجريدة البلاغ . وكانت الترجمة عصب أدبه . ترجم رباعيات الخيام نظما . وكتاب الأبطال لكارليل والمدينتين لديكنز والتربية لسبنسر وهو في هذا يتفق مع المازني

ويختلف معه ، فقد أبدع المازنى أدباً غير الترجمة . وكان المازنى يحب الترجمة الدقيقة ، ولكن السباعى كان يبيح لنفسه الترجمة بالمعنى ويعمد إلى توشية ما يكتبه بمحفوظة من النثر والنظم .

ولقد وصف زكى مبارك أزمة السباعى فقال : كان السباعى من أهل التضحية فى سبيل الأدب . ضحى بمستقبله وطمأنينته فى بلد لا ضمان فيه لحلة الأقلام . لقد ابتدأ عمله بالتدريس .ثم رأى مهنته لا تصلح لغير المتزمتين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين . فآثر حياة الكتابة على حياة التدريس . ولكن فى أى عهد كانت هذه المخاطرة . كانت فى عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من أشباه الخواص .

فاذا ذكرتم أيها الناس أن السباعى قضى أكثر من عشرين عاما وهو موصول الجد والكفاح فى إمداد الصحف بأروع آيات الترجمة والإنشاء فاذكروا بجانب ذلك أنه كان يحيا حياة العامل المسخر أو الأجير المغبون .

لقد كان السباعى من أهل المرح والطيش لا يرى العيش إلا فى منازلة الصهباء ومغازلة الظباء . فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء الحياة ولكنه فى أخريات أيامه استسلم إلى الحزن والابتئاس واطمأن إلى جذلة حلم يذهب ودنيا تزول[1] . . »

وقد أضافه زكى مبارك إلى كتاب مصر فى ١٩١٠ وهم محمد المويلحى وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ومصطفى المنفلوطى ووصفه بالبصر باللغة العربية وبالذكاء الحاد .

ويعد السباعى من أوائل من ترجموا من الأدب الروسى وحمل لواء الترجمة فى هذا العصر الذى كان الأدب العربى يتثاءب ليخرج من قوقعة

---

(١) البلاغ فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ .

الجمود والتقليد . وكان فى أشد الحاجة إلى أولئك الرواد الذين ينقلون روائع الأدب الأوربى والآثار والأفكار الغربية ويدين لهذه الطائفة بالفضل شباب الطليعة الذين جاءوا على أثرهم .

* * *

وبعد فليس فى حياة « السباعى » ذلك الصراع أو تلك الأحداث الضخمة الفاصلة التى نعرفها فى حياة بعض كتابنا ومفكرينا . وهى تتسم بذلك الطابع المتئد الهادىء . وتتلخص فى أنه قد انفصل فى شبابه عن حياة التدريس واختار الصحافة والأدب . ورأى أنه بذلك قد حقق أملاً كبيراً . ولكنه ندم فيما بعد على هذه الخطوة الجريئة وظل نادماً عليها طوال حياته فان الأدب لم يعوضه ما فقده ولم يحقق له ما كان يحلم به . .

وفيما عدا ذلك فحياة « السباعى » هادئة ليس فيها صراع ولا أحداث ولا مفاجئات . لم يكن من الذين يفترعون المساجلات فى الأدب ولا المغامرات فى حياته . وإنما كان يكتفى بهذا اللون الذى عرف به : الترجمة ونقل الآثار الأوربية إلى اللغة العربية .

زيدان



ظاهرتان فى حياة جرجى زيدان توحى بالعظمة وتلفت النظر إلى هذه الشخصية الضخمه التى تركت آثاراً قوية متعدده فى الاجتماع والأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتاريخ : انه هاجر فى مطلع شبابه إلى مصر والهجرة تعطى معنى القوة والثقة بالنفس والرغبه فى العلا والهروب من الواقع المر إلى الآفاق الواسعة . والثانية أنه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعدده حتى كسب قدراً من العلم أهله ليكون قائداً من قاده الفكر فى مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع إلى المجد فى نفس الشاب الذى عاش يكتب للناس ويدرس أسرار الوجود والأزلية . هذا البحث الذى شغل أوقات فراغه والذى قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول « لقد اكتفينا فى هذه الحياة بفخرنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الأخرى لعلنا ندرك من تلك الأسرار ما يشفى الغليل » .

ولم يقف أمر طموح جرجى زيدان عند هذا الحد بل أولع بالاسفار ، فقد ذهب إلى السودان وسافر إلى الاستانة وأوروبا وفلسطين ولاشك أن

وحلاته قد أمدته بمزيد من الخبرة والتجربة . وتنقل بين دراسة الطب والصيدلة واللغات فدرس العبرية والسريانية والإنجليزية .

ولا شك أن طبيعة جرجي زيدان العلمية ودراساته في مطلع الشباب واتجاهه إلى العلوم والطب واللغات هي التي كونت أسلوبه الكتابي ورسمت أسس كتاباته التاريخية وأسلوبه صورة نفسه ، الأسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ . فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الأحاسيس ، وكان غير حفي بالأناقة والطنطنة . وأسلوبه الأدبي يعطينا صورة الاعتداد في الطبع . ولكن هذا لا يمنع أنه ذو عزيمة ماضية ، وقلب وثاب . فهو قد هاجر من سوريا عندما ضيق على المفكرين ومنعت الخطابة وحرمت الكتابة ، عندئذ قصد إلى مصر مع من قصدوا إليها ليجدوا فيها مجالا لإعلان آرائهم .

وكانت حياة زيدان رمزاً على الجهاد الصامت والكفاح الدائب في سبيل الفكرة . « ابتدأ[1] زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف . فكان في أول سنة من سني الهلال يقف إلى مكتبه وقوفا يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ويترجم رجلا مشهورا ويؤلف رواية تاريخية . ثم يراقب الطبع والتصحيح دائبا على العمل نهاراً وليلا . ثم توفي وكان قبل الوفاة ببعض دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته » .

وصورة أخرى من طبيعته العلمية الراسخة ، أنه كان يواجه النقد والحملات بأسلوب الرياضي فلا يضيق بها ويمر بها كريما وهذه آية الدلالة على هدوء الأعصاب وضبط النفس والإيمان بالهدف .

* * *

ويعد جرجي زيدان من رجال الفكر . وأسلوبه أسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للمعاني . ولعل دراسته للطب في مطلع حياته هي التي

---
(١) سامي الجريديني .

منحته هذه الطبيعة العلمية . ويقف جرجي زيدان على إحدى القاعدتين اللتين أشرق عليهما فجر النهضة الفكرية في الشرق قاعدة لطفي السيد الذي رسم صورة المصرية وفتح باب النقد الأدبي . وقاعدة جورجي زيدان الذي أدخل إلى الفكر العربي المعاصر الطريقة العلمية المدينة بالبحث ووضع الخطوط الأولى للأبحاث التي جاءت بعده في تاريخ الاسلام والأدب العربي[1] .

وقد تأثر بطريقته وأسلوبه سلامه موسى وأحمد أمين وعباس العقاد، ومضى جرجي زيدان يحرر الهلال منذ سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ أي أنه أمضى اثنان وعشرين عاما وهو مكب على القلم يكتب ويقرأ ويدرس ويتناول فصول التاريخ القديم وأحداث الحاضر حتى أتيح له أن يخرج هذا القدر الضخم من المؤلفات والروايات .

وكان هذا في الحق جهداً غير طبيعي ، لايمكن أن يصدر عن انسان عادي مما أدى إلى أن يتحطم الرجل مرة واحدة .

ومهما يكن رأي النقاد في بعض الوقائع التاريخية التي أوردها جرجي زيدان فانه قدم إلى الناس صورا للتاريخ الإسلامي في أسلوب قصصي محبب إلى النفوس قريب إلى المتوسطين الذين لايستطيعون هضم المجلدات التاريخية الجافة . . .

ويقول الدكتور طه حسين أن جرجي زيدان هو « الذي نقل إلى الأدب العربي مذهبا من مذاهب الأدب الأوربي هو القصصي التاريخي »

* * *

وبعد فان الدراسات التي كتبها طه حسين والعقاد وهيكل ووجدي والجبيل ومطران والبشري والمنفلوطي وجبران على فترات متباعدة أو متقاربة من ذكراه ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب جميعا تلمذوا أو اتصلوا

---

(١) ولا ننسى هنا أثر شبلي شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف .

من قريب بآثار هذا الكاتب . فضلا عن أن هذه الآثار كانت موجهة لفئهم وأسلوبهم .

وأن منهم من كان يقصد جرجي زيدان ليسأله رأيه فى أمر من أمور الفكر والادب . يقول الاستاذ العقاد « . . ومرة آخر زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر . وأنا مشغول بقراءة شوبنهور لاسأله رأيه فى أصح النظريتين إلى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين »

ويصف طه حسين صاحب الهلال بأنه « من رجال هذا الجيل الساخط الطامح ، وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه . وجرجي زيدان لم يكن أرستقراطى الادب وإنما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع ، احداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الادبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة . والثانية النزعة الشعبيه التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه فصوله الثقافية العامة »

ويقول العقاد أن جرجي زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . . تقرأ جرجي زيدان فى جميع موضوعاته فاذا مطبوع بطابع السداد والاستقامة والاستواء . هى جدول وليست بشلال وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات »

وبعد فان آثار جورجي زيدان تعطينا صورة لرجل مفكر ، فيه نزعة علمية . ونظرة واحدة إلى إنتاجه تضع بين يدينا جوانبه العقلية جميعها ولكنها لا تضع أمامنا أى شيء عن عاطفته ..

ولكن عاطفته تبدو قوية حين نتصور هذا الإنتاج الضخم الذى أصدره فى السنوات القليلة التى عاشها منذ أنشأ الهلال ١٨٨٩ إلى أن توفى ١٩١٤ .

إن هذا الإنتاج يدلنا على أن جورجي زيدان لم تكن له صبوات . ولم

يكن ينفق وقته عبثاً . لقد عاش يقرأ هذه المراجع الضخمة التى استق منها مصادر كتبه فى التاريخ وفصوله عن الأبطال والعظماء . وجعل منها مادة قصصه . لقد عاش يقرأ ويراجع ويستقصى ويكتب ويراجع ويصحح ويقدم آثاره الأدباء فى الشرق العربى كله ..

إنك من خلال إنتاجه تراه جاداً متجهماً ليس فيه عاطفة ولا نزوة ولا نغمة من نغمات الأشواق الإنسانية . كأنما وجه عواطفه كلها إلى المطالعات والدراسات . وقد كان جرجى زيدان إذ ذاك سوى الطبيع والفطرة فتزوج وأنجب وكان يحمل عاطفة الحب لأولاده ويرسل لهم الخطابات فى أثناء سفرهم يوجههم ويدفعهم إلى الحياة الكريمة .

ومن هذه الخطابات تنكشف سرائر هذا الرجل الجاد المكافح فى إصرار عجيب وهو يرى أن الإنسان الممتاز هو الذى يعتاد الشىء سريعاً فإن قوة إرادته تجعله يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه . وأن ذلك دليل القوة والحيوية فى الإنسان وأشبه شىء بالمرونة فى الجماد .

وليس فى حياته حوادث ضخمة سوى هجرته من سوريا إلى مصر ، وكان هدفه استكمال دراسته للطب فى مصر بعد أن ضعف أمله فى الحصول على أجازته من بيروت . وتظهر عصامية جورجى زيدان حين يقول فى مذكراته أنه حين أزمع السفر إلى مصر لم يكن يملك نفقات السفر ولكنه لم يوفق فى مصر إلى دخول كلية الطب واتجه إلى الصحافة والأدب .

وتبدو مظاهر العصامية فى كل مراحل حياته فهو قد كافح حتى تعلم الإنجليزية وكافح فى سبيل دراسة الطب وتعلم اللغات العبرية والسريانية .

ولعل طموحه هذا وتطلعه إلى المجد هو الذى حجب عن أدبه مظاهر العاطفة فقد غلبت عليه النزعة العلمية فى آثاره وبحوثه . ولقد ظل جرجى زيدان يكافح ويدرس ويكتب حتى قضى وهو على مكتبه مخلفاً هذا الإنتاج الضخم .

يقول خليل مطران أنه ما عرف رجلا أجمع لانقيضين : الكبر والتواضع منه ، لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكا دنياه بمحضر من أحد . ولا أنه تمنى على أحد شيئاً بأشارة أو مصارحة كما أنني لم أجده مرة مستفزا اللاخذ بثأره من متهجم عليه في الصناعة التي هي مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته ، ويقول في خطاب لابنه ، في سنك كنت جباناً ولكنى لم أكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهني إلى نقص في ولو وجد من ينبهني إلى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح أعواماً ، فاستفد أنت من هذه الفرصة . إن العمل في الدنيا يحتاج إلى جرأة وإقدام كما يحتاج إلى الثبات والصبر .

ولكن إذا نحن أردنا أن نحـــدد مكان جورجي زيدان فأين نضعه بين الكتاب والمؤرخين والصحفيين . ؟

لقد كتب بضعة وعشرين رواية قصصية جعل مادتها التاريخية من تاريخ الإسلام ، وألف عدة كتب عن التمدن الإسلامي وتاريخ مصر وتاريخ مشاهير الشرق . ولقد تناول النقاد هذه المؤلفات بالدرس . وهوجم جورجي زيدان وقال البعض أنه اعتمد على بعض الروايات الضعيفة أو المؤرخين الإسرائيليين أو رضى بعض المصادر ذات الهوى .

ونسى النقاد أن جورجي زيدان كان يقتحم ميداناً جديداً وأن أدواته بالطبع كانت أقل من أدواتنا الآن . وأنه في حدود المراجع التي وجدها بين يديه استطاع أن يدرس تاريخ العرب والشرق باعتباره تاريخ الإسلام .

وليس من شك أن جورجي زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب عربي يكتب للعرب ، فلا عليه إن اعتمد على رواية دون رواية . ولا شك أنه فيما تناول من حياة المعاصرين كان دقيقاً ، لأن أدوات التاريخ كانت تعيش بين يديه . وهو لاشك أول من ابتدع من التاريخ الإسلامي

صورة قصصية لطيفة محببة إلى النفوس كانت سبيلا إلى عقلية العامة لتقبل حقائق التاريخ الجافة .

ولقد كانت آراء جورجي زيدان وأفكاره ومذاهبه غاية في الاعتدال . ولا عليه إن لم تكن معالم أسلوبه واضحة وضوح أسلوب الأدباء فهو عالم وباحث ومفكر . وقد عاش قبل نهضة الأسلوب البياني وآمن بالأسلوب التلغرافي القصير الواضح الذي يصل إلى ما يريد أن يقول دون لف أو دوران .

وغاية القول أن جورجي زيدان قد أنشأ مدرسة واضحة الأثر في الادب العربي الحديث هي مدرسة الهلال التي أبرزت بصورة واضحة فيما بعد في أحمد أمين وسلامه موسى والعقاد ، ولا شك في أن حديث الأربعاء وفجر الإسلام وضحاه فهما ذلك الامتداد الواضح في اتجاه جورجي زيدان .

البشرى



ما ذكر اسم « عبد العزيز البشرى » إلا أحس الذين سمعوا عنه أو عاصروه أنه لم يكن كاتباً بقدر ما كان من ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة .. وقد رويت عنه الفكاهات أكثر مما رويت عنه أمثال الأدب . ولم يخلف هو فى الأدب إلا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه « المختار وفى المرآة وقطوف » إذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة .

ولقد كان عبد العزيز البشرى صديقاً لحافظ ابراهيم لا يفارقه . وكان من زملاء طه فى طلب العلم فى الأزهر ومن رواد صالون آل عبد الرازق .. وهو فى خلال ليله ونهاره صورة من الابتسام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شىء . ولا يقلقه أمر . وكأنما هذه الدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أكدار .. ولطالما عرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية أن يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجريين الذين تكثر آلامهم ومتاعبهم ..

إن الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهرية الخالصة فقد

عاش فى أعماقها وخالط رجالها ونسائها .

ولكننا لا نستطيع أن نأخذ هذا القول كما هو . فان أسلوب عبد العزيز البشرى وحين يضع قلمه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته ، وإنما يبدو فى صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة ، والمعانى الإنشائية التى لا تخلص من العبارات الضخمة الرنانة . ويقينى أنه لو ترك قلمه على سجيته لجاءت معانيه أشد وضوحاً . ولكنها الطبيعة الأزهرية التى لم يستطع التحرر منها أو التخلص من آثارها .

وبعد فما هو مكان عبد العزيز فى الأدب العربى المعاصر :

أنه لم يتهيأ لكى يكون كاتباً أديباً ، ولكنه كصنوه المنفلوطى ، كره الأزهر واتجه إلى الأدب والقراءة والصحف . . . وكتب فى المؤيد واللواء والظاهر ، ولكنه آثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه ، وعرف فى المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر ، محدثاً فكهاً لبقاً بارع النكتة ، حلو الحديث . . كما عرف حافظ ، وإن لم يتأت له أن يكون فى أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والإشراق الذى عرفت فى مجالسه كمحدث .

. . . ولعله كان يؤمن فيما بينه وبين نفسه أنه ليس بكاتب ، وإن كان قد ترك آثاراً ما تزال حية باقية وهو يصف طبيعته هذه « .. إن عادة لزمتنى من يوم ضبطت القلم ألا أحرص على شىء من آثاره المنشورة فى الصحف فإذا وقع لى شىء من ذلك أسرعت إلى إتلافه تمزيقاً أو تحريقاً .

وسبب هذه العادة أنى أول ما عالجت الكتابة كنت أدرك أنى ناشىء لا أجيد البيان فان كانت لى طبيعة فلن يتهيأ لى الإجادة إلا بعد شدة ، إمعانا ، وطول تمرين ، وظللت على هذا دهراً ، وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يثبت الأنظار » .

وأمضى البشرى ثلاثين عاماً وهو يكتب . ولكنه كان مقلا ، متأنقاً ،

لا يوقف نفسه على الكتابة ، وإنما يرسلها إرسالا فتأتى أحياناً على فترات متباعدة أو متقاربة .

* * *

وأبرز لون عرف به البشرى فى الأدب المعاصر هو تحليل الشخصيات « فى المرآة » . وإن كانت الاعتبارات السياسية قد حالت بينه وبين توقيعها عند ما كان يوالى نشرها فى السياسة الأسبوعية .

وتعطينا هذه المرائى صورة واضحة لعبد العزيز البشرى ، صورة الرجل الخبير بالناس ، الذى عاصر هذه البيئات وعاش فيها ، وعرف من أمورها الخطير والصغير ، وأحاط بما كان يجرى وراء الستار . .

ترسم لنا هذه اللوحات تلك الخبرة التى استطاع أنه يتميز بها عبد البشرى كما وصفه الدكتور طه حسين « . كان رحمه الله من أقل الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الإمعان فى طريق واحد . ولكنه فطر فى حياته على حب التنقل فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة . فى قهوة من القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية ، فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة . .

. . وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الأوساط والطبقات وقد أكسبه هذا اللون من الحياة خبرة واسعة بالمجتمع المصرى فى كل خصائصه ونقائصه . كما أفاده احاطة شاملة بما يؤثره أبناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع . سواء أكان ذلك فى البيت أو فى المقهى أو فى الشارع . وسواء أكان ذلك مما يجرى فى حياة الناس العامة ، أم فى خلواتهم الخاصه . ومن ثم

كان أروع الكتاب وأبرعهم ، إذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهرى ، وماطرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات ، وماجد فى حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات .

تعطيك « مرائى » عبد العزيز البشرى هذا الفهم وتملأ نفسك ثقة بخبرته هذه . فهو يتناول فيها شخصيات مصرية ، كانت لامعة اذ ذاك فى محيط السياسة والأدب والفكر ، يتنا ولها فى قوة وفى جرأة وفى سخرية . . إلا حين يتصل الأمر بسعد زغلول .

وقد صور فنه فى هذه المرائى فى عبارات واضحة . . « . . . والغاية التى تذهب إليها « المرآة » هى تحليل « شخصية » من تجلوه من الناس ، والتسلل إلى مداخل طبعه ، ومعالجة ماتدسس من خلاله ، لقتص هذا على القارىء فى صورة فكهة مستملحة » .

وبرع البشرى فى تصوير المجتمع وأحداثه وكل مايتصل بالناس فيه ، ولقدرته على إيراد النكتة أو تشقيق السخرية مدى بعيد فى خلود آثاره تلك ، لولا ذلك التكلف الذى يبدو على أسلوبه بين حين إلى حين ، . . عندما يريد أن يحى لفظا ميتاً ، وهو فى هذا الجانب قريب إلى الرافعى . . كما يبدو قريبا إلى المازنى فى تناوله لحديث المجتمع ، مع قاهرية أصيلة واضحة المعالم حفظها له أنه . . ابن مصر . . اذ لم يخلط فنه بالآداب الأوربية . . وموضوعه عن « الشحاذون » والباعة المتجولون مثل لما نقول وهو عصرى الرأى ، بالرغم من ثقافته العربية الخالصة ، وحديثه عن أهل الفن والموسيق والغناء والتمثيل ، يدل على صلة دائمة متجددة قائمة منذ عهد بعيد .

* * *

وكان فى مطلع شبابه صديقا لطه حسين ، ثم صاحب حافظ ابراهيم حتى لم يكن يرى أحدهما فى مكان ما . دون أن يكون معه صاحبه وقد ظل طه

يحب عبد العزيز ويضمر له الود ، ويذكره راضيا عنه حتى إذا ماقضى أكرمه حين أصدر له مجموعة « قطوف » .

« . . . وأنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى . وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه . وحين يرتفع الضحى نقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهاته عن جد البلاغة و الأصول ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ونزعم لأنفسنا أننا نغذى به العقول والقلوب وانى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن نصلى العصر ، نقرأ معاً كتاب الكامل للمبرد وكان مزاح عبد العزيز وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما يصرفانا عن ذاك » .

. . ولعل هذه الصورة تعطينا تأكيدا بأن « عبد العزيز البشرى » كان فى آخر مراحل حياته شبيها به فى أول مراحلها . . هذه النفس العذبة الصافية المحبة للفكاهة والطرافة والحياة .. المقبلة على جمال الحديث وتشقيقه ، المغرقة أحيانا فى السخرية . . الراغبة إلى الأدب تكتبه بين حين وحين وتتناوله على هذه الصورة من التكلف الواضح ، والمعاناة الطويلة ، ثم عشيان هذه المجالس التى يضطرب فيها الادباء والساسة .. وقد فرض عبد العزيز البشرى نفسه على الادب ، كاتبا من البلغاء ، ذى الديباجة الرصينة والاسلوب البيانى ، إلى صف الرافعى والزيات والمازنى .

ولو قد أتيح لعبد العزيز أن يوغل فى الصحافة كما حدث للمازنى أو المنفلوطى اذن لتحول أسلوبه إلى شيء من اليسر والتبسط .

ولست أوافق الدكتور زكى مبارك على رأيه فى أسلوب عبد العزيز البشرى « .. البشرى كاتب » على الطريقة البشرية « كاتب يذكرك كل سطر بأنه

أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس . والكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك إلى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك دون أن يفكر فى حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية . ولو شئت لقلت أن الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب أنه من أصحاب الأساليب لأن الكاتب العظيم تصبح الكتابة عنده من وحى الفطرة والطبع فأين البشرى كاتباً من هذه المعانى ؟

هو رجل صخاب ضجاج يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد . هل سمعتم بالرحا التى تطحن القرون ؟ هى البشرى ، فى بعض نثره القعقاع(١) . . . »

ولست أوافق مبارك وإنما أرى أن البشرى يحرص على أن تكون إثارة غاية فى القوة والإجادة ، وهو كلف بالجاحظ محب له إلى أبعد الحدود ، ولذلك تردد كثيراً فى أن يواجه الجاهير بكتاب مطبوع . حتى أنه يقول فى مقدمة كتابه فى المرآة « . . . وجعلت أعود على تلك المرايا بألوان التهذيب قادم مارث بالطبع ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . . . »

وإذا نحن قرأنا فصلامن فصول عبد العزيز البشرى : وليكن « فى الطائرة » مثلا لوجدناه غاية فى الرشاقة والجمال والإبداع .

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه « كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره وفى مادته . . . »

(١) فصل عن كتاب المختار فى الرسالة مجلد سنة ١٩٤١

ومن هذا الفصل العذب الحلو . . ننقل هذه العبارات .

« . . . ونسيت أن أقول لك أنى حينما دعيت إلى ظهور الطيارة تفقدت شيئاً مهماً جداً ، وبخاصة فى هذه الرحلة فلم أجده وكيف لى بإصابة مالم يكن ، ووجدان مالم يخرج بعد إلى الوجود . ذلك إنما تعودت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حزب البر ، فاذا علوت السفينة قرأت حزب البحر ، فمن لى بحزب الهواء . . .

« وأطلق السائق التيار . فدار المحرك برهة تزيد على الدقيقة والطيارة ثابتة فى موضعها . ثم بعثها فزحفت على الأرض زحفاً رقيقاً ثم استحال جرياً وظلت تدور على اليبس ، ولما طال ذلك قلت لصاحبى لعلنا نبلغ الإسكندرية على هذه الحال براً . أفتراها إذن سيارة أفرغوا عليها هيكل طيارة ، فضحك صاحبى وقال : أى أرض ، لأنت والله على جناح الريح ، فالتفت وحققت النظر فاذا أنا حقاً قد جزت بين الأرض والسماء من حيث لا أشعر[1] . . . »

هذه لمحات من آثاره الأدبية غاية فى صفاء النفس وحلاوة العبارة ، وهى بعيدة كل البعد عن « طحن القرون » .

والواقع أن أسلوب البشرى فيه رصانة وبساطة ، وكتاباته مزيج من الجد والفكاهه . وهى صورة من طبيعته الإنسانية فقد بدأ حياته فى الأزهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء ، ثم أتيح له بعد أن يقرأ الأدب الحديث ويتصل بالأدب الأجنبى فيما ترجم منه .

وقرأ « الأغانى » وأولع بها حتى أدمن قراءتها كما يقول الدكتور طه حسين « فانتهى لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة » .

---

(1) جريدة الأهرام — ١٩٣٣ (المختار) .

واتصل عبد العزيز البشرى بالحياة المصرية اتصالا وثيقاً ، وعرف دقائقها فى أفراحها وأحزانها ، وكان أكثر اتصالا بالناس فى مقاهيهم أكثر مما كان عاكفاً على القراءة والبحث . وكان يتصل بالزعماء والأوساط والأدباء ، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب ، كما يتصل بالهيئات الاجتماعية ، وقد أمده هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم . كان له أثر فى غزارة مادة أدبه .

ولكن أين المرأة والحب فى أدب البشرى ؟ إننا لا نجدها واضحة صريحة ولكننا نحسها وراء هذه اللمحات البراقة حين يتحدث عن الفن ، ونعتقد أنه عرف الكثيرات فى محيط المسارح والملاهى وكانت له صبوات ، كان يصده عن تسجيلها أنه ابن شيخ الازهر ، ويرده عن الايغال فيها إحساسه بأنه لايلق ما يلاقيه أهل الوسامة ، ولعل فكاهته وطرافة حديثه كانت تفتح أمامه الابواب وتهتك الحجب .

المازنى



فى حياة المازنى ثلاثة أحداث ضخمة . وفاة أمه وحادث ساقه ووفاة زوجته الأولى . كان يحب أمه فى عنف ، وبصورة لم تعرف إلا عند جبران ..

« كانت تقول لى لقد كنت أنا مستعدة أن أعمل بيدى فى سبيل تربيتك فكن أنت مستعداً أن تعمل حتى بيديك إذا احتاج الأمر . وكانت قوية الشكيمة فلا رأى إلا رأيها فى الأسرة كلها وكانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة فكنا نتفاهم بالعيون والذين حولنا غافلون ولا يفطنون إلى شىء :

ولما حضرتها الوفاة قالت أعطنى ثلاثين قرشاً ولم تكن بها حاجة إلى ذلك وكنت قد أعددت عدتى لذلك اليوم فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى مايكفى لنفقات المأتم .

كانت حاذقة كيسة فى سلوكها فلا نهر ولا زجر ولا أوامر ثقيلة ولا نواهى بغيضة ولا شطط أو إسراف .

إن موتها هدنى فقد كانت أما وأبا وأخا وصديقاً . . »

وعاش المازنى تسع سنوات بعد وفاتها يعيش على ذكراها .

أما ساقه فقد كانت له منها عقدة إلى جوار عقدته من قصر قامته ولقد أصيب بالعرج بلا موجب ، كانت زوجتى مريضة . فأجريت لها عمليه جراحيه وفى صباح اليوم الثانى وقفت إلى سريرها وفى يمناى الدواء ممزوجا بالماء فى كوب من الزجاج . وحاولت أن أرفعها بيسراى وكان السرير عاليا وأنا قصير القامة فشببت . فسمعت شيئا يطق ، فظننت الكوب قد انكسر ونظرت إليه فاذا هو سليم ، فحاولت أن أدور على قدمى لأرى ماحدث فاذا بساق اليمين تخذلنى ولا تحملنى فسقطت على الأرض ثم تبينت أن حق الحرقفة هو الذى انكسر . وعولجت ثلاثة أشهر ولكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت عظمة الساق عن استقامتها فقصرت عن أختها فكان هذا العرج .

كان هذا فى ١٩١٤ فتغيرت الدنيا فى عينى وزاد عمرى عشر سنوات فى لحظة . وأدركتنى الشيخوخة فى عنفوان شبابى فاحتشمت وصدفت مضطراً عن مناعم الحياة وملاهى العيش ، وغمرت نفسى مرارة كان يخيل إلى أنى احسها على لسانى . . .

وكان الحادث الثالث وفاة زوجته فقد كان يحبها حبا عظيما فلما ماتت حزن عليها حزناً شديداً . . وما أنا الآن ، حى من الأحياء لايدرى الناس أنى مت منذ سنين ، وأنى قبر متحرك كشمشون ملتون أو جثة لم تجد من يدفنها . أو صورة باهته لما كنته فى حياتى . . .

ولقد عاش المازنى حياته كلها ولهذه الأحداث أثرها الواضح عنده . . . كان فى حياته طموحاً إلى الحب والعاطفة ما دفع ، عبد الحميد رضا ، أن يفتعل له خطابات غرام كان لها أثرها فى حياة المازنى وفى أدبه . فقد أحس أن هناك فتاة أدبية تحبه وتضمر له غراماً وجوى فبادلها العاطفة ولم تكتشف الأمر الا بعد وقت طويل .

ولقد كان المازني شديد التعلق بالحياة ، وكان في أيامه الأخيرة يفكر في الموت تفكيراً متصلا وقد أحس بالموت قبل وفاته بأسبوعين فكتب وصيته

ولكن المازني بالرغم من هذا الحرمان كان من أنفذ كتابنا في مسائل المرأة وأمور الحب والعاطفه والزواج . . ذلك هو المعنى الأول الذي يرد إلى ذهني حين أتناول هذا الكاتب بالدراسة .

لست أدري ماهو العامل القوي وراء هذه القدرة . هل هي القراءة أم التجربة أم الاتصال بالحياة الزوجية أكثر من مرة ، ولكني احس بأنه ما تناول مرة هذا الموضوع الا وعالجه في نفاذ ودقة وعمق وفي نفس الوقت في يسر لا أجده عند كثير من كتابنا المعاصرين .

فالمازني هو أحد هؤلاء الرواد الذين صنعوا هذا الأدب المعاصر وتركوا فيه آثاراً قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحاول دراسته . وليس كما حاول هو أن يقول حين صور هذا المعنى . . . مامصير[1] كل هذا الذي سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء . أنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء . فقد قضى الحظ أو يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق وبتسويه الأرض لمن يأتون بعدهم فمن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ، من الذي يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد .. وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتي نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره ، ويقيمون على جانبه القصور شاهقة باذخة . ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها شاهقة رائعة . . فلندع الخلود إذن ولنسأل : كم شبراً مهدنا من الطريق . . .

* * *

بدأ المازني حياته مدرساً ، ثم آثر الصحافة والأدب ، فانصرف عن

---

(1) حصاد الهشيم .

التدريس مبكراً . وظل يتقلب في هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاماً مجاهداً ، لم ينقطع فيها عن الكتابة والإنشاء والترجمة يوماً واحداً فهو يقرأ ويستوعب ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود إلى قلمه وورقه . .

« ما أظن إلا أن الله جلت قدرته قد خلقنى على طراز عربات الرش التى تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ويفرغ ليمتلىء — أحس الفراغ فى رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك فأسرع إلى الكتب التهم ما فيها وأحشو بها دماغى حتى اذا شعرت الكظة ، وضايقنى الامتلاء رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء وقمت متثاقلا متثائبا ، مشفقاً من التخمة ، فلا ينجينى الا أن أفتح الثقوب وأسح ! . . »

وشارك المازنى فى تحرير عديد من الصحف اليومية والأسبوعية لا يحصرها الاستقصاء ، وهى صحف منوعة من الناحية السياسية اتصلت غالبا بجميع الأحزاب والهيئات وتطور أسلوبه تطوراً كبيراً ، واشترك منذ الشباب مع العقاد وشكرى فى الدعوة إلى المذهب الجديد ، الذى كان له صدى بعيد المدى فى تجديد معالم الأدب المعاصر .

وثقف المازنى نفسه بالأدب الانجليزى وأوغل فيه . وتحول فيه من لون إلى لون ومن اتجاه إلى اتجاه . وكان لعبدالرحمن شكرى الفضل فى توجيهه إلى الألوان الرفيعة فيه .

يصف هذه الفترة من حياته الفكرية . . « كنت فى شبابى قليل الثقة بنفسى بالرغم من غرورى ، فكنت أراجع الكتب أكثر مما أراجع عقلى [1] ولا أنظر بعينى ، بل أفكر بعقول غيرى ، وانظر بعيونهم ، ولهذا كانت شخصيتى مستترة ، وقلما تتبدى ، وكان الذى يتبدى هو اطلاعى ، أى ثمرة دراساتى وقراءاتى .

---

(١) قبض الريح .

ومضى المازنى يشق طريقه الأدبى فى قوة ، فتقلب فى كتابة المقالات والفصول الأدبية والنقدية والتحليلية ، ونظم الشعر ثم انصرف عنه واتهم نفسه بأنه ليس بشاعر ، ثم عرف طريقه أخيراً واستقر عليه ، عند ما بدأ يكتب القصة .

وهو يؤمن بأن « لقمة العيش » هى التى ترسم الطريق الذى يختاره الكاتب كما قال لأحد الذين استشاروه . . « ستكتب فى السياسة وفى أسعار القطن والبورصة ، بل وفى هبوط أسعار الخيش وارتفاع أسعار الصفيح ، إذا أرادت لك لقمة الخبز أن تكتب فى ذلك » .

وكان يؤمن بأن الكاتب لايستطيع أن يجيد فى أكثر من لون : فلا يكون زجالا وقصصياً وشاعراً فى وقت واحد .. وقال محدثه « .. لو أن أم كلثوم رقصت إلى جانب غنائها لما أصبحت أم كلثوم ، فلا تحاول أن ترقص وتغنى ، وإلا عجزت عن الرقص والغناء . ارقص أو غن ، وستصل حتماً » .

ولقد كان المازنى ينعى على الأدب أنه لا يكفل للتجرد له حياة أومعاشا وقال أنه لو فتح دكانا لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من إنتاج الأدب ، وكان يسخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالأقة لبعض بائعى اللب والترمس غير أن رأيه استقر أخيراً على أن يفتح دكانا أدبيا يستعيض به عن دكان الطعمية وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحاً وإن عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذع والسخرية العميقة !

والمازنى كاتب فكه ساخر ، ولكنه عميق الغور ، واسع الأفق ، انطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غاية فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتبا استطاع تصوير هذا الشعب فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه .. كما فعل المازنى .

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيدة الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله ، فهى قد جعلته « فأر مكتبه » بكل معنى الكلمة ، إذ آثر القبوع والانزواء

والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل ... وقد آثر في مطلع شبابه أن يسكن في الصحراء بجوار مقابر الإمامين ، وكان لهذا المعنى في نفسه صورة رائعة « ... بيتي[1] على حدود الأبد لو أنه كان للأبد حدود .. إلى يميني الصحراء .. وإلى يساري الصحراء وفي كل ناحية يرتمي في لجاجها الطرف وفي كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهة ، أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ، ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليثوب بسواهم مطويين في أكفان أثباجه ، محمولين على نقوش من مزبد أمواجه» ويروى عن نفسه أنه في صباح يوم عرسه دخل إلى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الانسانة الجديدة .

وأسلوب «المازني» له طابعه المميز ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه ، وهو يحب الازدواج ، وقد كان كلفا به في فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئا ما ، ويبدو من وراء كتاباته هادىء النفس ، مركز الاعصاب ، مستقر النفس ، كأنما لايعرف العصبية ولا يضيق بالحياة . أو كأنه ليس هناك مايزعجه .

كما يبدو في كتاباته ساخراً ، مستهينا بالأحداث ، لايحفل بأمر من أمور الدنيا ، ولايضيق بمنكر من صروفها . ولايتزعج لأي أمر مهما جل ، وهو فيما يصور نفسه يستقبل الحياة طروبا ضاحكا باسما مشرقا ويتحدث عن الدنيا كأنما قد نفض منها يده ، فلم يعد يطمع في جمال أو مال أو متاع ، أو كأنما قد حيزت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر .

ويصور المازني قراءاته فيقول « ..كنت[2] أقرأ من قبل الأدب العربي وآثار الفكر الإسلامي . وباللغة الانجليزية الأدب الكلاسيكي ، ولست أحب الأدب الفرنسي ، ورأيي فيه أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقا كالآداب الأخرى ، وقد شرعت منذ بضع سنوات أعيد دراسة الأدب العربي على نحو منظم ، وليس لي طريقة خاصة ، أو وقت خاص للقراءة ، فكل وقت صالح

---

(1) حصاد الهشيم (2) مجلة المصور – 24 فبراير 1944

لذلك . وكل مكان أستطيع فيه القراءة . ولوكان حماما بخيره . وإني بخلاف غيرى لا أدون ملاحظات ولا أضع علامات على الكتب . وقد بعت ما اقتنيت منها مرتين ، مرة بخسارة جسيمة ، وثانية بدون خسارة .. »

ويصور زكى مبارك أسلوب المازنى فيقول أنه « بدأ حياته النثرية بالطريقة الجاحظية ، وهى تقوم على أساس الازدواج . وقد وفى المازنى لهذه الطريقة أصدق الوفاء ، فى أمد يزيد على عشر سنين . ثم جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية . ثم ابتدع المازنى طريقة جديدة هى كتابة أكثر مقالاته وقت إنشائها بالمكتاب فيتشى . انتقال على أصوات طق . طق . طق . من هاله أن يرى بناء الجملة عند المازنى الجديد يخالف بناء الجملة عند المازنى القديم فليذكر هذا التاريخ فى حياة هذا الفنان ..(١) »

ويقول توفيق الحكيم أن المازنى يطلق روحه على السليقة « .. فهو يكتب بدون تكلف وبدون أن يراعى قول الناس فيه . إن المازنى نفس طليقة مصبوبة على الورق فى صفاء . وليس بالنفس الحبيسة فى إطار الوقار المصطنع أمام الناس .. »

ومن أبرز جوانب المازنى ، جانب الترجمة عن الإنجليزية فهو بارع فيه إلى أبعد حد .. « لست(٢) أغلو إذا قلت إنى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر ، أديباً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، وعلك هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً ، ويجيد فيها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » .

وقد عن للمازنى فى فترة من فترات حياته (١٩٣٣) أن ينكر على نفسه أنه شاعر .. وضايق العقاد هذا الحمل عليه ..

---

(١) الرسالة ١٠ نوفمبر ١٩٤١ زكى مبارك .
(٢) عباس محمود العقاد : الأساس : ٧ يناير ١٩٤٨ .

يقول المازني « إني مخلص في استضعاف شعري أو ما كنت أزعمه شعراً من كلامي . ولقد هممت غير مرة أن أكتب نقداً له ليكف عن وصفي بأني شاعر من لا يزالون يحسنون الظن بي ، ولكن كراهيتي له كانت تصرفني في كل مرة من النظر إليه .. »

ويقول العقاد « .. لم أر أحداً يجور على المازني كما يجور المازني على فضله وقدره . وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله ، والاستخفاف بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر غناء ما يكتب وينظم ، وما عسى أن يكتب وينظم ، وقد تغني أسماء كتبه عن الاستشهاد فيها بما قاله في تصغير فضله وقدره ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم وقبض الريح .. »

واستشهد العقاد بكلام كتبه المازني في هذا المعنى وهو قوله « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالا للعمل » ثم علق على ذلك بقوله « إن المازني يستخف بعمله لأنه يستصغر حياة الإنسان في جانب آماد الخلود ومصائر الأقدار ، ولأنه ينظر إلى أعلى ولا ينظر إلى أدنى فيقيس ما عمل بما أراد أن يعمل » .

وقد صور « الزيات » حيـــاة المازني الادبية « . . عرفته في خريف ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الإعدادية الثانوية معلمين ، وكان يومئذ في مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الادب ، ويطرق باب الشهرة ، ويحاول هو وصاحباه العقاد وشكري ، أن يشقوا طريقهم إلى المجد في أرض غليظة صلدة يقوم في بدايتها عقبتان : صاحب « الشوقيات » بشعره الرائع ،

---

(١) الرسالة : ٢ سبتمبر ١٩٤٩ .

وصاحب « النظرات » بنثره البليغ ولكنهم كانوا أصحاب معول ومسطرين يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ويبنون بالتجويد والتجديد والدرس »

ووصف « الزيات موقف المازنى عندما يشتبك فى خصومة يقول « . . على أنه كان إذا أكره على الخصومة ، شديد العارضة ، حديد القلم ، يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة » .

وكانت للمازنى فى فجر حياته الأدبية يوم أن كان يحمل المعول آراء ، ولكنه عدل عنها بعد ذلك .

وقد ظل العقاد والمازنى على صداقة الشباب ، وكانت تقوم بينهما بعض المناورات والمساجلات ولكنها كانت تمضى رقيقة هينة ، وأن اختلف المازنى والعقاد فى كثير من آرائهم السياسية والأدبية ، وبقيت كلمة « المذهب الجديد » قاصرة عليهما ، فقد كانت هناك مدرسة السياسة ، ولها اتجاهها نحو الثقافة الفرنسية ، وبقى خلاف خفى بين المدرستين ظهر حينما اشتبك العقاد وطه حسين فى مساجلة « لاتينيون وسكسونيون ، واضطرت الصحافة المازنى إلى أن يكتب دون استعداد ، يتناولها فى سرعة ، ويكتب عنها دون مراجعة أو تعمق .

وقد منحت الكتابة السياسية « المازنى » الشهرة كما منحتها الكثير من الأدباء الذين لو اشتغلوا بالادب الصرف لكانوا أقل درجة فى الشهرة مما هم الآن .

ذلك أن أدباءنا كانوا يتناولون العمل الأدبى كفرع من العمل السياسى ، ويفردون له يوما من أسبوعهم الملىء بالصراع الحزبى ، وكان لهذه الكتابات السياسية أثرها فى الأسلوب الأدبى وطريقة تناول الموضوعات ، فقد طغت السياسة على الأسلوب فجعلته ضعيفا ، ليكون قريبا إلى نفسيات الجماهير ، كما طعمته بذلك اللون الخصيم فى التعابير وأخشى أن أقول أنها خلقت الاغراق

فى الخصومة والبعد عن الانصاف ولكن المازنى ، يتميز فى هذه الناحية ، بأنه لم يكن الكاتب العنيف الثائر ، ولا المعارض الجرىء ، ولا المتطرف الذى يمسك بطرف الحبل وإنما كان هادئا ، يكتب السياسه بروح الرياضى ، ويعمل فى ميدانها على أسلوب من السخريه والتهكم .

وكان المازنى ضخم الانتاج ، يكتب كثيراً ويكتب فى كل وقت ولذلك فانت لا تجد أدبه درجة واحدة فى الجودة . ولا يغض هذا من قدره ، فهو لم يتفرغ للأدب وحده ، وإنما عالج الصحافة ، والصحافة مهنة السرعة ، ومهنة الكتابة العاجلة .

* * *

فاذا ذهبنا ندرس شخصيه « المازنى » من أدبه ، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التى لا تعطى صورة واضحة .. وقد صور هذا توفيق الحكيم « . . أن المازنى أكثر الكتاب تصويراً لنفسه ولحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له . أن قدرة المازنى على الخيال والاختراع واختلاط حقه بباطله ، قد أسدل حجابا كثيفا على وجهه الحقيق ، فأنا عاجز عن أن استخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة ، التى تعج بالنساء المدللات والأوانس الرشيقات ، امرأة واحدة ، أستطيع أن أقول أنها كانت صاحبه الشأن الأول فى حياته ، على أن الذى لا شك فيه عندى ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازنى أن يكتب قصص . . . »

فاذا اتصل الحديث عن المازنى والحب وجدنا قدراً كبيراً من الآثار التى تدل على الفهم العميق وعلى التأثر بهذه العاطفة وبلوغ أعلى مراتبها .

« أحببت مرات عديدة ، فأنى أبداً كما قال فى الأستاذ العقاد

أنت فى مصر دائم التجديد   بين حب عفا وحب جديد

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لايطول إلا ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل — وما من واحدة أحببتها الا تمنيت على الله أن يهبنى القدرة لاصلح بعض مالا أرضى عنه . . وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى . حاشا وكلا . وانما هو اشتهاء الكمال كما اتصوره ولا كمال فى الدنيا مع الأسف[1] »

ويضيف الأستاذ محمد محمود حمدان — مؤرخ المازنى — « ... على أن أهم مايذهب إليه المازنى فى فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الانسانى يتسع لأكثر من حب واحد فى وقت واحد ، أو فى أوقات متقاربة ، وأن اختلف كل حب فى القوة والنوع والوجهة[2] ..

ويؤكد المازنى أن الانسان لايعرف التوحيد فى الحب . فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أكذوبة ضخمة وخرافة تلوج بها اللسان ولا يصدقها القلب . . . »

ولكن المازنى على كثرة ماأحب ، لايؤمن بأن المرأة مصدر وحى للأديب .. « . . . لست ممن يقولون أن المرأة هى وحى الأديب والفنان أو العالم فان فى هذا القول مبالغة وتخليطا ، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون فى الأغلب المرأة بالمعنى الجنسى .

.. أن كل ما أعرفه فى هذا الحب ، هو أن المرأة أداة لأراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية ، ومتى استراحت الأعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب ، تيسر التفكير الهادىء المتزن ، والانتاج فى يسر وبغير اجهاد .. واستطاعت الاعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كلال أو ملل . أى أنها هذه الناحية وسيلة للإنعاش والتنشيط .. »

والمازنى على نقيض صديقه العقاد ، يؤمن بالزواج ويرى رعى العزوبة ..

(١) الرسالة — ١٢ يولية ١٩٣٧ . (٢) الرسالة — ١٦ فبراير ١٩٥٢ .

ويقول أنه لو كان أعزباً لما أطاق الحياة .

غير أن الصور الأدبية التى كتبها المازنى على هيئة قصص لا تضع أمامنا صورة كاملة لحب كبير من ذلك النوع الضخم أو العاصف الذى يكون عادة بعيد الأثر فى حياة صاحبه . وهو بطبيعته يميل إلى الانطواء والاكتئاب . ويعزو ذلك إلى شعوره بعيوبه . فقد هيضت ساقه فى شبابه فقصرت على حد تعبيره كما أنه يصف نفسه بسرعة النسيان . ولكنه لا ينسى الصور مهما طال عليها الزمن . يقول « وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أنى أنسى الأسماء أول ما أنسى حتى ليكبر فى وهمى أنه سيجيء يوم أنسى فيه اسمى . وأنا أتفاءل وأتطير وفى بيتى وجهان أكره أن أصبح عليهما أحدهما وجهى . . ويشرح صدرى جداً أن أرى الهلال فى أول الشهر القمرى ومعه شيء من الفضة . ومن عيوبى إسرافى وجبنى . فكل مال أفيده يجب أن يخلو منه يدى فى أقصر وقت وإلا شقيت واضطربت أعصابى . . » ويقول عن نفسه أنه جامد العين قلما يعرف أنه بكى لحادث مهما كان خطيراً وقد سأل عن أستاذه الأول فقال أنه « الفقر » ويقول أنه هو الذى أتانى القوة والقدرة على الكفاح وعلمنى التسامح . وعودنى ضبط النفس وجنبنى أن أحترم المال لذاته » .

ويخاف المازنى الموت . وقد حاول أن يتداوى منه فنقل بيته إلى حيث أجداث الموتى وحيث كل قبر يصير قبرا مرارا . ويفزع حين يرى الشيب قد وخطه . ولا يجد له علة إلا هذه الصناعة القاسية « وأشعر كأنى شيخ هرم محطم الأعصاب مهيجة الكيان . ألست محقاً . ألا تقتضانى هذه الحرفة التى أدركتنى أن أكتب كل يوم ولا أستريح يوما . أليس معنى هذا أنى فى كل يوم حين أريد الكتابة [illegible] أعصابى على أن تكون فى حالة تهيج لما تهيئوا طبيعيا . . . » .

ويؤمن المازنى بأن على الكاتب أن يرضى ذوقه الفنى أولا دون أن ينظر

إلى القارىء وأهوائه . ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكاتب له من الهوى أثر ولايزال الإنسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة .

ويعد المازنى ثانى رواد القصة الطويلة فى الأدب العربى المصرى الحديث ولم يرحل المازنى فى حياته كثيرا . وهو فى هذا شبيه بصديقه العقاد ، وفى أيامه الأخيرة كان يجلس إلى النافذة ليكتب بين السادسة والعاشرة صباحاً وقد آثر الكتابة بالآلة الكاتبة فى سنواته الأخيرة .

وبعد فالمازنى ولا شك رائد من رواد الأدب العربى المعاصر قام بدور واضح خلال ثلاثين عاما كاملة . كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى كان بعيد الأثر فى تطور الشعر العربى والنثر العربى الحديث .